المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

من القصص الإسلامي

حسين الطوخي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بقلم
الاستاذ الدكتور احمد الحوفى
استاذ الادب العربى
بكلية دار العلوم

اراك الى الدوحة العظمـة التى كانت جـذورها تضرب فى أعماق الأرض ، وافنانها تتعالى الى عنان السماء ، تضىء ظلالها على ما حولها ، وتجود بأحلى الثمرات واسهاها ، فطعم الناس من جناها تكرة وعشيا ؟

ثم شاء الله ان تسترد ثمارها وفواكها ، فركت أصولها ، وتساقطت فروعها ، وبدت عارية ثمراتها

ذلك مثل الأمة العربية فى ماضيها المجيد ، وما ولته من تحلف وخمود ، ثم ما تلاه من نهضة وانطلاق

وما من شك فى ان الأمة العربية — وهى تستشرف مثلها العالية ، وتعدو نحوها عدوا لا تكل ولا تتوقف — فى حاجة الى خواطر من عهدها الذهبى السالف ، ترد عليها قوة ، وتضيف الى ثقتها بنفسها ثقة ، وتكشف لها عن أصالة فى المجد ، وعراقة فى العظمة ، وبسالة فى ميادين العلم والأدب والحضارة والأخلاق

ولم تكن صورا من العبث ما رددته شعراء العصر الحديث وكتابه من مفاخر ماضينا الاسلامي ، ولم تكن من باطله القول ان تكلف العلماء والكتاب بالكشف عن جلائل ما اسداه سلفنا الصالح الى الانسانية من فهم روحه ومثل عالية وجهود سنية في مجال الحياة الكريمة الرافية

لهذه المعاني وما تتصل بها قرأت هذه القصص التاريخية التي كتبها الأستاذ حسين الطوخي ، فاسقى ، لأنه توخى رسم كثير من الصور المشرقة المشرقة لنواح من تاريخنا العربي الاسلامي العربي ، في اسلوب جذاب ، وتصوير رائق ، وعناية باحداث وقعت واهملها التاريخ ، او هي لم تقع ولكنه تخيلها في غير تكلف او تعجل او اغتراب على الجو العام

وانه لمن المسرور على القارىء أن يستخلص من كل قصة عدة صور وعدة مفاخر ، وعدة عبر

فهو مثلا يجد في (نسمة من السعد) عدالة الخليفة المهدي ورحمته وتهيبه بأنه المسئول الأول عن السعب ، فتحلس نفسه للفصل في المظالم ثم تريد على هذا ان تعد حجرة في الطريق العام ليطرح الناس شكاياتهم من شاكلها الجديدي ، وتستقل الخليفة بالاطلاع على هذه الشكاوى

وتبين القارىء آثار سياسة المهدي في استقرار الامن ، وطمأنينة السعب ، وانتشار الرخاء ، ووفرة الغذاء والكساء

ثم تخص بآثار هذا كله في طمأنينة الخليفة ، حتى انه اروى ظمأه الى المعرفة ، فكان مجلسه بالرصافة حافلا بحلة العلماء والأدباء والمحدثين والفقهاء ، تحاورهم وتحاورونه ، وقد احتلف مره مع اسحاق بن نجيح في أعظم بيت قاله شاعر في الفخر ، وانتهى الخلاف الى تحكيم العالم الراوية المفضل الضبي

وحينما يقرأ قصة (رحلة من البادية) تتصور نفس الحجاج بن يوسف الثقفي ، ومقدرته على اخماد الفتن ، وتجد صورة فكهة لما دار بينه وبين

فريد حسان بن مسعود الفقي ، ثم نحس بدهاء هـذا البدوي ، اذ ولاه الحجاج خراسان ، فرع في ضبط سبلها ، وسلك الحيلة الناجحة مع اهلها ، فقاصاهم الخراج بعد ان طالت مراوغتهم لسابقيه

وهكذا ترسم الأستاذ حسين الطوخي في كل قصة تاريخية عـدة صور توحي بعمل عظيم او بخلق كريم

واحسب انه لا ضير على القاص في ان يبعد عن بعض الحـقائق التاريخية بعض البعد ، فيجعل سببا ، أو يزيد حدثا ، او يفصل امرا ، لأنه يكتب مستمدا من عواطفه وميوله وحيـاله ومتأثرا بآرائه ، اما المؤرخ فانه يسجل الوقائع ، ويضبطها ، ويفسرها ، ويعلق عليها ، في اطار من قيود علمية لا تتعداها

ومن هنا كان القاص والمؤرخ يختلفان في العمل والطريقة والهدف وبعد ، فهذه عدة قصص تاريخية أرجو ان تكون فيها امتاع وتسلية ونفع للناس

"شعاع من القلب ..."

لم يحظ « معاوية بن أبي سفيان » بخلافة المسلمين في العام الأربعين للهجرة عنوة بقوة السيف ، او بالعصبية الهوجاء ، او بغير ارادة العرب والمسلمين ، وانما حظي بها لأنه كان يملك محبة القلوب واجتماعها عليه في الشام وفي أرض الحجرة على السواء ، بالرغم من قرابة « علي بن أبي طالب» للرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه

ويوم أن احتكم علي ومعاوية الى الناس في صفين ، واربصوا ابا موسى الأشعري ممثلا للأول ، وعمرو بن العاص ممثلا لنابيهما ، ثم جاءت نتيجة التحكيم في صالح معاوية ، لم يجرع المسلمون لاختيار معاوية خليفة لهم ، بل على النقيض من ذلك ، رضي الناس في ارجاء الامبراطورية الاسلامية بمعاوية ، بعد أن شاع فيهم ان « عليا » كان صالحا في قتل «عثمان بن عفان» رضوان الله عليه ، وانه ليس ادل على ذلك من اختصان علي لقتلته وضمهم الى صفوف جيشه الذي سار به الى قتال معاوية في ارض الحجرة وفي بلاد الشام

ولن اختلف المؤرخون في حق علي او معاوية بخلافة المسلمين بعد مقتل ذي النورين ، فقد اجتمعت كلمتهم وكلمة المسلمين على أن معاوية كان يملك ما يؤهله لهذه الخلافة ، وان لم يربطه بالرسول وسائر القرابة أو المصاهرة

نعم كان معاوية اهلا لأن تتبوأ هذه المكانة الرفيعة ، خليفة للمسلمين ، مثلما كان علي اهلا لها ، فهو سليل بيت عريق لأحد سادات قريش في الجاهلية وفي الاسلام ، بيت عبد شمس الذي انتقل من سيادة في الجاهلية الى سيادة في الاسلام

كما كان معاوية مقربا الى الرسول صلوات الله عليه بعد اسلامه ، وكان مولى الكعبة بين يديه ، ولما ان قبض الرسول ومولى الخلافة ابو بكر ، ولاه قيادة الجيوش مددا لأخيه يزيد بن أبي سفيان ، فأهله سخاءه وحرأته وحسن تدبيره لفتح بعض الشام وبسط كلمة الاسلام في ربوعها البعيدة والقريبة على السواء

وفي خلافة عمر بن الخطاب تولى امارة الاردن ، حتى اذا ما مات أخوه يزيد ، لم يجد عمر أصلح من معاوية ليمسك زمام دمشق وما ينتظمها من الولايات والأمصار

وحين تولى عثمان بن عفان خلافة المسلمين ، جمع لمعاوية ولايات الشام كلها ، فكان يختار بنفسه الولاة والأمراء والعمال دون الرجوع الى خليفة المسلمين في مكة ، فقد كانت الفة في مصاف نصره تنقل اليه من خليفة بعد خليفة

ذلك الماضي المضيء وهذا الحاضر الوضيء اللذان واكبا معاوية بن ابي سفيان منذ دخل في دين الله حتى واقعة صفين ، كانا خير ركيزة تتوكأ عليها يوم تودي بالحكيم أي الرجلين يختارون ابن أبي طالب او ابن أبي سفيان ؟

وتتسع عيون المتتبع في سماء معاوية ، وتصغو له النجوم الى حين بعد مقتل علي بن أبي طالب رضوان الله عليه بضربة من سيف « ابن ملجم » في فجر ليلة الخامس عشر من رمضان لعام اربعين للهجرة مكبا عليه من آل البيت ومن محبيه في كافة أرجاء الامبراطورية الاسلامية الفتية

وتحل العام الحادي والاربعون للهجرة وتجتمع بحلوله بيعة اهل العراق والشام لمعاوية وتسميه المسلمون عام الجماعة لاتفاق كلمتهم واجتماعها بعد فرقة هوجاء سالت من أجلها دماء غزيرة طاهرة حصدت أرض العراق والشام وغيرها من أمصار كان تؤذن في سمائها بذكر الله

وبهذا أنقاض البيت الأموي بعد طول لهاث ، ويسكن حارس اول خليفة من ذلك البيت العربي ، وتتحد من دمشق حاضرة للخلافة الاسلامية بدلا عن مكة المكرمة ، ويسم من أمامه ومن ورائه الحجاج والآدبون حتى لا تكون نهايته مثلما كانت نهاية عمر وعثمان وعلي رضوان الله ورحمته عليهم في الدنيا وفي يوم الحساب

وتبدأ السمات الواضحة في تعرف طريقها الى وجوه بني أمية ، وتبدأ أول خليفة أموي في قواعد دستوره وحكمه للمسلمين مستهديا بكتاب الله الذي أنزله على رسوله ، وبضياء ما سنه الخلفاء الراشدون ، يساعده في ذلك كله ما درج عليه من آداب الاسلام وكياسته ، وما سهر عن حلمه وحسن سياسته

ولقد ظن معاوية أن حمل متاعه قد انقضت بمقتل علي، وان ما تخلف من آثار المعركة يمكن ان يزيله ويحرقه دون ما جهد أو مشقة لكن الظن قد خاب ، وادا به منذ اللحظة الأولى التي استسلم فيها ازمة أمور المسلمين ، يستصل رياحا عاتية هوجاء تارة بنار عثمان تارة، وبحار ندم على ثارة اخرى، وينادي بالخروج على هذا وذاك تارة ثالثة

ولو لم يكن معاوية يتحرر من صلابة عزمه وقوة عزيمته وسعة حلمه وادابه ما نواجه به اعاصير الطالبيين وعواصف الخوارج ، لكان الاسلام قد تعرض لهزات يمكن ان تؤدي به وهو بعد لم يتجاوز طور الشباب

وتصمد معاوية صمود الأسداء لكل ريح تهب عليه من الداخل ومن الخارج ، فترب الحملات لردع سطوة على بالعراق وقمع فتن الخوارج التي يثيرونها هنا وهناك، ولم يكن هناك امر يقلق معاوية ويؤرق نومه سوى امر الخوارج الذين علوا في الدين وحملوه كثيرا على غير وجهه ، وتعرف بسبب ذلك كلمة المسلمين ، وخيف على الدين الوليد أن تتزعزع اركانه وتتصدع بنيانه ويعود المسلمون القهقرى الى عصور الجهالة والظلمات

وهيء الأقدار لمعاوية نفرا من الأسداء ذوى العزائم الماضية ، فيقفون الى جانبه ، ويسددون من أزره ، ويحملون معه على الخوارج والطالبيين ويكسرون سوكتهم حتى اختار معاوية أشد فجوره فى خلافه وهو لا نبتدأ بذكر الدور الكبير الذى لعبه كل من «زياد بن سمية» و «المغيرة بن شعبه» و « عبد الله بن زياد » مع ما ارتق من دماء زكية فى كثير من الولايات والأمصار

لقد سدد « زياد » امر السلطان ، وأكد الملك لمعاوية ، وجرد سيفه ، وأخذ بالطنة ، وعاف على السنة ، وخافه الناس خوفا شديدا حتى أمن بعضهم بعضا ، وحتى كان السوط يسقط من يد الرجل أو المراه اثناء السير فى الطريق فلا يعرض له او يهربه احد حتى يعود اليه صاحبه فيجده سليما كان

ولقد يعاب على معاوية نزوعه الى السدة وعدم نفوره من البطش والقسوه ، اذ كان غير رجاله وعماله عليها ، لكن الغلب المنصف للمنصف للخليفه الجديد أكثر من سبب يدعوه الى ذلك السبيل فقد استغل معاوية خلافه للمسلمين وهم على أهواء مختلفة وقلوب مستعدة عصب بالمراره الثقيلة منذ مقتل ابن الخطاب ومن بعده عثمان ثم على بن أبى طالب ، حتى سهل على هذه القلوب أن تسق عصا الطاعة وان تستجيب لوساوس الفتن وتهاب السكينك ، فكان لابد لهذه الجروح فى صرح الاسلام السامح أن تراب وان تقوم المجروح منها قبل ان تستعجل الداء وتعز بعد ذلك الدواء

والصفحة من المؤرخين قد سجلوا لمعاويه فضائل وحسنات جمة واخلاقيات نافلها الناس فى خلافه وبعد وفاته ، كما تحدث بها ملوك الروم والفرنجة ، ولعل من أبرز فضائله ما اتصف به من حلم واسع وأناة حكيمه حسبه الكثير من المواقف السانحة سجلها له التاريخ ليوريها جيل تعقبه لأجيال قادمة

* * *

وتمضي الأيام والسنون بمعاوية ، بعد ان حمدت الفتنة ، يسوس الناس بالرفق واللين والمصانعة حتى استقامت له الأمور واجتمعت عليه الكلمة ، والتف الى الداخل بوله فائق اهتمامه ، فانضبط شئون الخراج، وتامت سبل المواصلات في طول البلاد وعرضها ، وأقام من اوفياء عماله من العرب الخلص حكاما وامراء على الولايات والأمصار ، وكان نادر بعزل كل عامل سبق عليه سمعة أو مطعن ، بعد أن يحاسبهم بالعدل والقسط دون ما التفات الى صلة قرابة أو وشيجة مصاهرة

ويطيب لمعاوية ان يسمر مع الحين والحين مع خلصائه ووجوه بني امية في قصر الخلافة في دمشق ، ويجري الحديث في المجلس حول شئون الدين والدنيا وامور الملك ، ويستمع الخليفة الى رفيع القول وعليطه من كل ما يصبه المجلس الكبير ، ويسر « يزيد » ولده وولي عهده غبطا حين يشهد اباه يتوسع في صدره لهذا وذاك ويعض حياء بصره حين يغلظ اليه احد السوقة في القول

وينتهي سمر الخليفة ذات ليلة ، وينادي لسماره بالذهاب ، وينتهز يزيد ، فيقابله امه « عاتكة » بعد ان ضبت بسطر خروجه من المجلس لتحدثه في امر يشغل بالها منذ أيام

ويحنو الأب على امه الأثيرة ويقبل جبينها ويربت على كتفها ويفتح لها قلبه الكبير ، فتتطلب اليه « عاتكة » أن يأذن لها بالحج في ذلك العام لزيارة قبر الرسول

ويضيء البشر في وجه الخليفة ويجيب دعوتها ، فيامر بان يجهز جيش حجيج ، كما يرصد لها ما يتصدق به على الفقراء من أعطيات تليق بمقام امة أمير المؤمنين

ويقبل قافلة عاتكة ويشيعها بدءها الى مكة ، ويلتم الناس بها ليشهدوا موكب الموكب ويتأملون الخدر من صاحبته التي سدلاً وجهها بالصفاء من خلف السور

ثم تصل سعراء مكه والمعنون لسالوا حظهم من عطاء امة امير المؤمنين الى نصيح السمع الى ما تلقى من القصائد والاناشيد ، وتحس عائكة أنها تحققت من قيود فرضت عليها هناك فى دمشق حيث تقيم الخليفة ، وحبت العيون والاسماع ترصد كل ما تصدر عن ذلك البيت العريق

انتشت عائكة حقا بما سمعت وما شاهدت من المواكب الفرحة الى تعيش فى ظلال خلافة رشيدة اشاعت الأمان والرخاء والسعة فى كل شئون الحياة

كانت شوق عائكة الى سملها وشملت معها جواريها وخدمها ، مثل شوق طفل غرير انطلق الى حضن حكيم مؤدبيه الى آفاق رحبة تربع فيها وتلهو دون رهبة من حساب او خشية من عقاب

حتى اقبل ذلك الشاعر يشدو فى مسيبه وتجال فى هيئته

أراحت عائكة طرفها السر الذى تخفيها عن زحام المواكب التى تروح وتغدو بالأهازيج والغناء وتقر الدفوف ، فأبصرت وجهها وصيبا تتطلع الى هودجها ولا تبدو عليه سمات المتجسس ، انما تسع من وجهه جمال رصين تحدق اليه القلوب والأبصار ، وتروح نظراته وتغدو متمهلة غير مهمومة ، وادعة غير ملهوفة تستطلع وجه عائكة وتتامل قسماته المبسمة وقد تضرجت فيه وجنتان وتنا تبسمة حلوة سترة اضاءت فى خاصه غمازتان آسرتان

احست عائكة شيء ما يتدفع فيها الرهيف ، وتسرع فيه نبضه اللهيف ، ثم غامت عيناها لحظة ، وحين أفاقت ، أبصرت الشاعر الوسيم يدير وجهه حتى لا تلحظ ما اعتراه من رعشة الحب الذى نزل فى قلبه وصيره مثل عود الزهر اضاءه الظل فوجف منه القلب وارتعد

احس الشاعر أن سهما طاش من رامية فأصابه ، فمد يده الى قلبه تتسمع دقاته الى تراقبت وامسك بعضها بتلابيب بعض ، ثم استدار نحو

عاتكة فرآها قد أرخت الستر وتوارت خلفه ، فعدم اليها ، فما راعه الا ان سمعه وأومأت الى حواريها وخدمها بالرحيل الى وادى « ذى طوى » حيث هيىء لها مقام خليل نزل به حتى تنقضى ايام الحج

لم يدر الشاعر الصب أن عاتكة قد اصابها مثلما أصابه ولكنها علمت على أمرها بعد أن راب حواريها وخدمها فلحظها وهى تنظر اليه ، وخافت على نفسها أن تعود الى أنها تسحب من ورائها سائغات بأنها أحبت واحدا من الشعراء الذين تشبهم العاذلون ، فكان أن اصطنعت عصبها أمام خدمها بينما القلب يدمى من جراح السهام التى أطلقتها العيون

ولما أن تحركت قافلة عاتكة ، واختلط الحابل بالنابل ، عاد الشاعر الى مجلس نظرائه ، وظل ساهما لاتسس بست سعة ، وفى النهاية اطلق لسانه على غرة تترنم بصوت رخيم

ابى دعابى الحب فاستجبت	حتى رأيت الحب بى استبانا
يا حسنه اذ تبدى مدبرا	مستترا عنى بخلبانا
سبحان من وقفها حسرة	صب على القلب بأوصابا
يذود عنها اذ نظلتها	ان لها ليس يرهان
أحلها قصرا منيع الذرى	يحمى بأبواب وحجابا

وشاع الأبيات فى عاتكة بمكة وشهرت وذاع وانتقلت من لسان الى لسان ، وبقى فى فيها المعنون حتى سمعتها اسادا وعباد فضحكت وأعجبتها الأبيات العذبة ، والعوابى بعرهن الماء ورفرف فلوبهن العشاء ، فعجب تسأل عن الشاعر فاخبرت بأنه « أبو دهبل الجمحى » فظامن حاشها وسكن خاطرها ، فهو ذلك الشاعر الذى مدح من قبل اباها فى قصائد رائعة اهتز لها وجدان الحليمة ، فأمر له براتب كريم يقبضه فى كل عام

واقصد أمام عائكة فى مكة وفى المدينة ، وما كان يود الأوبة الى دمشق والى جدران القصر الذى يسوح بالخدم والحواري والوصائف حيث تتسمع دقات القلوب وتعدون الأنفاس والرفراف وتسلون كل ما ينطق به السماء الى هنا والى هناك

لكم ودت انسة الخليفة ان تظل فى مكة لتدوب مع نساء الناس ولتعيش مثلما تعيشون على هواهم ، ولتشهد كل ما تجرى تسهم على الساحة حيث لا عين هنا ترقب ولا حافظة هناك ترصد همس السماء ونجوى القلوب

وفى يومها الأخير بمكة وبينما القافلة على اهبة الرحيل ، تعيد عائكة الى « ابى دهمل » نكسوة وحائرة وتكلم يفهمه المحمول وان لم يفهمه الخدم والرسل

وحرب تسهما الرسل والرسائل تحمل نعاس القلوب ، وعائكة من قبل ومن بعد واحدة من تلك الانسان الذين خلقهم الله وأودع فى قلوبهم الحب والاستهاء لا فرق فى ذلك بين انسة ترى وفقير أو بين امير وحقير

عادت القافلة أدراجها الحجاز وفى قلب عائكة حوى يتأجج لهيبه كلما ذكرت « أبا دهمل » وتمنت فى اعماقها لو لم تكن انسة امير المؤمنين حتى تكون خالصة من قيد الامارة الثقيل وما يفرضه من مداراة هوى القلب وكتمان ما تضطرم به الجوانح نعم ، ودت عائكة لو خلصت لهذا العاشق الذى احبها واحبته ، فعاشا تحت سقف واحد لا يراحمهما رقيب يعد عليهما الحركات ويحصى السكنات وهمس السماء

وأبو دهمل ، لكم غالب حتى قلبه الذى استهام بحب عائكة ، فهو يعلم أن الحب فى السماء ، انما هو ادنى واقرب اليه من حبلها روحة ورشفة حياة

لم يستطع الشاعر العاشق أن يشهد عائكة تفارق ارض الحجاز دون ان تتملى من طلعتها ، فركب ناقته واخذ يسير بها على مقربة من قافلتها حتى

اذا حطت فى محله لتصيب حظا من الراحة ، حظ العاشق قريبا من حمامها يرف عدوها ورواحها ربما يسأنف الركب المسير

وتهب نسمات رطبة فيسرى من عبيرها روائح المسك والكافور التى تطيبت بها عاتكة ، ونعيم عشاه ، وتربعد فؤاده ، وتوشك ان تروح فى اعشاه طويله

ولم تجرع عاتكة من مصاحبة «أبى دهمل» لمافلها بعد ان هوىالحب عليها ما تراه عيرها دما أو بغيضة ، وكابد بعاهده بالبر واللطف حتى وردت دمشق فدخلها معها وانقطع عن لقائه ، وبعد من أن تراها بعد ان عشتها عن باطريه حدران القصر المهيب وما نصب على ابوابه من الحراس والحجاب

استبدت اللوعة بأبى دهمل ، فكان يجرح فى الليل نحوس فى طرقات دمشق حتى تهوده قدماه الى قصر الخليفة ، فيأخذ فى الطواف من حوله لعله يلمح شبحها او يلقى احدى وصائفها فيحملها بعض ما يحمل قلبه المفعون ، حتى اذا يئس من لقائها وعاد الى حيث يقيم داوى النفس محروما فألم به المرض واخذ يهذى فى نومه ونقظته

طال ليلى وبت كالمجنون ... ومللت البواء فى جفون (١)
واطلت المقام بالشام حتى ... ظن اهلى مرحمات الظنون
فبكت حسبه التفرق حمل ... كبكاء القرين اثر القرين
وهى زهراء مثل لؤلؤة الغوا ... ص ميزت من جوهر مكنون
واذا بشتها لم تجدها ... فى سناء من المكارم دون
ثم جاصرها الى القبة الخضر ... اء تمشى فى مرمر مسنون
فبة من مراجل صربوها ... عند برد الشتاء فى قطنون
عن يسارى اذا دخلت من البا ... ب وان كنت خارجا عن يمينى
ولقد قلت اذ تطاول سقمى ... ونقلبت لبلتى فى فنون
ليت شعرى امن هوى طارنومى ... ام ترانى الغارى فصير الحصون

(١) مكان خارج دمشق

ساع هذا الشعر فى دمشق ، وتناقله الناس فى مجالسهم وسمرهم حتى بلغ معاوية فصغر عليه ، وكان قد بلغه خبره مع عائكة ، حتى اذا كان فى يوم الجمعة الذى يستقبل فيه الوفود والشعراء ، دخل عليه الناس وفيهم « أبو دهبل » فقال الخليفة لحاجبه اذا اراد أبو دهبل الخروج فاسمعه وارددە الى

وجعل الناس يسلمون وينصرفون ، وقام أبو دهبل لينصرف ، فناداه معاوية يا أبا دهبل الى فلما دنا اليه أجلسه حتى خلا به ثم قال له ماطيب أن فى فريس أشعر منك حيث تقول

ولقد قلت اذ تطاول سقمى ... وتقلب ليلى فى الضنون
لعل شعرى ان هوى طارقومى ... أم رأى النار فى الغضا فحنون

غير أنك قلت

وهى زهراء مثل لؤلؤة الغوا ... ص مزجت من خمر مكنون
واذا تبسمها لم تجدها ... فى سناء من المكارم دون

ووالله ان فتاه أبوها معاوية وجدها أبو سفيان وجدتها هند بنت عتبة لكما ذكرت ، فأى شىء ردت فى قدرها ؟ غير أنك أسأت فى قولك

ثم خاصرتها الى القصر ... اء تمشى فى مرمر مسنون

ارتاع « أبو دهبل » لحظة ثم قال والله يا أمير المؤمنين ماقلت هذا ، وانما قيل على لسانى ولصق بى أمرى قلته وامير المؤمنين يعلم رفعة قدره وعظم منزلته فى نفسى الساكر لفضله الذاكر لمنه أبدا

عندئذ أخذ معاوية يتفرس فى وجه أبى دهبل الذى صرخته حمرة الخجل فطأطأ رأسه سمعا السر يكسو قسمات وجه الخليفة الذى قال

ـ أما من جهتى فلا خوف عليك أيا دهبل ، لأنى أعلم صيانة ابنتى لنفسها ، وأعرف ان فتيان الشعر لم يتركوا قول السيب فى كل من جار أن

تقولوه فيه وكل من لم يحر ، وانما أكره لك حوار « برد » وأخاف عليك وبيله ، فان له سوره السباب وابنة الملوك

ولم يحد « ابو دهبل » ما يرد به على حلم الخليفة ، فرفع اليه وجهه ، فرأى معاوية دموع الشاعر تسيل من عينيه ، فكانت أبلغ من اى كلام سامعها ادار الخليفة وجهه حتى لا يرى عبرات الشاعر ، واشار الى خادمه المقرب ، فاسر فى اذنه كلاما جرى على أثرها ثم عاد يحمل كيسا مختوما دفع به الى أبى دهبل ثم صرخه حتى غادر آخر أبواب القصر

نعم كان معاوية محقا لأبى دهبل الشاعر الذى يعنى بقصائده دون أن يلقاه ، فقد كان الخليفة يتحد من السام مقاما له قبل خلافة أبى بكر حتى يوم له بالخلافة ، وكان معاوية يحس بان هناك شعاعا فى قلبه يربط بينه وبين ذلك الشاعر العف الذى يمدحه بقصائد رائعة شاعت فى ارض الحجاز وبالطبها الرواه والركبان ، ويعنى بها المعنود حتى بات ذكر معاوية يجرى على كل لسان فى الأطراف القريبه والبعيده على السواء

والحق أن معاوية اراد بهذا اللقاء الكريم بينه وبين شاعره الذى شبب باسمه ، أن يهرب أبو دهبل ، فيقضى المقالة عن امته ، ويأمن جانب ولده يزيد ، ولم يكن أهون على امير المؤمنين من ان يطيح بعقله جراء ما صدر عنه فى حق اسمه، وها هو ذا شعره قد ذاع واشتهر الأمر الذى يستوجب القصاص أغلظ قصاص

والحق أن حلم معاوية فى هذا المقام ، كان ابلغ من عفوه لأبى دهبل، فقد تثير المحن على من حنه وتحول نعيما الوشائج الى سياط من النار والعصاء ، لكن الحلم الجميل عسير على صاحبه الا برائله ، انما يظل كامنا فى القلب كالجوهر الأصيل يتسع بالجود والعطاء والصفح الجميل

غادر ابو دهبل دمشق وأرض الشام يتحرج من ورائه اذيال خزيه من أمير المؤمنين الذى قابل الاساءه بالاحسان ، وقال كنوه الشاعر وأحد

سدته ، لكنه في حالا صلوعه لم ينس عائكة ، ولم يعقل فلسه عن الحقق بحها ، وكذلك « عائكه » امه معاوة خليفة المسلمين وامير المومنين لم ينس أبا دهمل ولم يبرح خيالها وجهه الصبح منذ نظر اليها قبل ان ترخي الستر هناك في مكة

عاد « ابو دهمل » الى مكه جسدا بلا روح ، وجسما بلا قلب لقد ترك الروح والقلب هناك في دمشق ، في ذلك القصر الذي علت أسواره فحجبت الأجساد دون القلوب ، وسامحت جدرانه فمنعت الأبدان دون ارواحها الهائمة

لم يقدر ابو دهمل ان يحول بين روحه وروح عائكة ، ولم يقو على واد شعبه قلبها العص ، فاحد نكاتبه ونكاتبه ، وحرب الرسل بينه في مكه وبينها في دمشق ، واخذ يعمل في رفض خطابها من أكابر البت الأموي على أمل هو اوهى من خيوط العنكبوت

وبينما الخليفة في جناحه بالقصر ذات صباح بعد ان خلا الى نفسه يسترجع معها سنود الملك والخلافة ، دخل اليه خادمه يقول يا أمير المؤمنين، والله لقد سقط الى عائكة اليوم كتاب ، فلما قرانه نكت ثم أخذته فوضعته تحت مصلاها ، وما زالت حائرة النفس منذ اليوم

قال الخليفة لخادمه اذهب فالتقط لهذا الكتاب حتى تأتيني به فانطلق الخادم ، فلم يزل يلتقط حتى اصاب منها غرة فأخذ الكتاب واقبل به الى الخليفة فاذا فيه

اعائك هلا قد يحلب فلا ترى ... لدى ضرة رلعي لذيك ولا حفا
رددت فؤادا قد تولى به الهوى ... وسكنت عنا لا تميل و لا ترفا
ولكن خلعت القلب بالوعد والمنى ... ولم ارتوما منك جودا ولا صدقا
أتنسين ايامي تربعت مذنفنا ... صريعا بارض الشام داستقم ملفى
ولنس صديق يرتجى لوصية ... وادعو لذاتي بالسراب فما اسعى

فواكبد همى ان أرى لك مرسلا ... فطول نهارى حالس ارقب الطرفا
فواكبدى ادليس لى منك مجلس ... فأسكو الذى بى من هوالـ وما التقى
رابك بردادس للصب علطـة ... وبرداد فلى كل يوم لكم عسقا

اصطرب قلب معاوية وتغير وجهه وأحس بالغضب يثور فى أعمـاقه ، ويوول للحابى من الحليم اذا غضب قال معاوية لخادمه وهو ينظر فى ابيات أبى دهبل ادع لى ولى عهدى يزيد

دخل يزيد على ابيه فوجده حزينا مطرقا فقال يا امير المؤمنين ، ماهذا الأمر الذى شجاك ؟ قال معاوية امر امرضنى واقلقنى منذ اليوم وما ادرى ما أعمل فى شأنه قال يزيد وما هو يا أمير المؤمنين ؟ فقال معاوية وهو يعالج سورته هذا الفاسق ابو دهبل كتب بهذه الأبيات الى أختك عاتكة فلم يزل باكية منذ اليوم ، وقد افسدها فما ترى فيه ؟

وكانما كان معاوية يتحسس فى ولى عهده مقدار مواهبه لما قد يعرض له فى خلافتـه المقبلة من مواقف ، وكانما كان يعلم فى يزيد حمقا يزل فيـه قدمه ، وهو بعد فى سوره الشباب وأبهة الملك

قال يزيد على طن بأنه سيرضى أباه والله ان الراى لهين قال معاوية وماهو؟ اجاب يزيد عند من عندك نكس له فى ارقه مكه فيريحنا منه فقال معاوية اف لك ! والله ان امرا يريد بك مايريد وتسمو بك الى ماتسمو لعمرى فى رأى ، وانت قد صاق درعك بكلمة وقصر فيها باعك حتى اردت ان تقتل رجلا من قريش ! او ما تعلم انك اذا فعلت ذلك صدقت قوله وجعلنا أحدوثة أبدا !

قال يزيد والخجل يأخذ بتلابيبه يا امير المؤمنين ، انه قال قصيـدة أخرى يشاركها اهل مكة ويشارب حتى يلعنى واوجعنى وجعلنى على ما أشرب به فيه قال معاوية وما هى قصيدته التى اوجعتك ؟ قال يزيد أما سمعت يا أبى قوله فى اختى عاتكة

ألا لا يعل مهلا فقد ذهب المهل ... وما كل من يلحى محقا له عمل
لقد كان فى حولى حالا ولم ازر ... هواى وان خوف عن حبها شغل
حمى الملك الحبار عنى لقاءها ... فمن دونها تحنى المنالف والغل
فلا حر فى حب يخاف وباله ... ولا فى حب لا يكون له وصل
فوا كبدى ابى شعرت بحبها ... ولم يك فيما سا ساعة بدل
وما عجبا ابى أكابد حبها ... وقد ساع حبى فطعت دونه السبل

اسم معاوية فى ارداح لما أن سمع أبيات أبى دهبل من ولده يريد ثم قال قد والله رفعت عنى ، فما كنت آمن انه قد وصل اليها ، فأما الآن وهو يشكو أنه لم يكن بينهما وصل ولا بذل فالخطب فيه يسير قم عنى وأعزب عن وجهى فقد بدا لك فوسك وطاش سهمك

فام يزيد وانصرف وهو يتمنى غيظا وجعا اذ يرى أباه يحلم بالناس ويوسع لهم فى رحابة صدره ويأخذ الأمور بالرفق الذى يطمعهم فى النيل منه ثم لا يرضى فى النهاية أن يحاسبهم ويوقع بهم ما يستحقون من جزاء

ولقد أدرك معاوية بعد انصراف ولده انه لابد صانع امرا يؤدى بأبى دهبل ويقطع مقالته الى غير عودة

كان يعلم ابنه ولده وضيق صدره بما يقوله الناس وان لا شىء عنده أغرب اليه من سيفه وان لا كلمة اسرع على لسانه من كلمة القتل نعم لقد اعتزم امرا واعتزم معاوية أمرا آخرا

وراودت معاوية فى تلك الليلة احلام ازعجته رأى شبح ابى دهبل يروح ويجىء دامع العين واجف القلب كأنما يستجدى يحلمه لرفع عنه ما يعانيه وما يضطرم فى فؤاده المحزون

وصحا الخليفة قبل أن يطلع الفجر واحد يتمتم بأدعيته ، ثم اتاه صوت المؤذن ، فقام واغتسل ، وأسبغ وضوءه ، وصف محرابه ، وصلى الفجر ، وأرسل يدعو اليه قيم القصر

وصحا سكان قصر الحليفة فى الصباح على هرج فى الأبهاء والغرف ، فسألوا عن الصحة ، وجاءهم نبأها أن الحليفة قد عزم على أداء الحج فى ذلك العام

جمع « معاوية » فى تلك السنة ، ولما انقضت أيام الحج ، كتب أسماء وجوه قريش وأشرافهم وسعرائهم ، وكتب فيهم اسم « ابى دهمل » ثم دعا بهم ففرق فى جمعهم صلات سنية وأجازهم جوائز كثيرة فلما قبض « أبو دهمل » جائزته وقام لينصرف ، دعا به معاوية فرجع اليه ، فقال له

— مالى رأيتك أنا خالد يريد بن امير المؤمنين عليك ساخطا فى قوارص كانت منك ، وشعر لا يزال ينطق به وأنشدته الى خصمائنا وموالينا ، لا تعرض لأمر خالد

جعل « ابو دهمل » يصدر الى الحليفة ويحلف له انه مكذوب عليه وقد دسه الواشون ليتالوا من مكانته عند أمير المؤمنين قال معاوية لا تأمن غلبك وما تضمر لك عندنا حتى هل بروحت أنا دهمل ؟ أجاب أبودهمل مسرورا لا يا أمير المؤمنين قال معاوية فاى بيات عندك احب اليك ؟ قال ايها سلمى يا أمير المؤمنين قال معاوية قد روحتك اياها واصدقتها ألفى دينار وامرت لك بألف دينار قال ابو دهمل وعيناه تسح كلامه لو رأى امير المؤمنين أن يعفو لى عما مضى ! فان بطنت شيب فى معنى ما سبق منى فقد اصبحت ذمى وابنة عمى التى روحنيها طالق البتة

ساع السرور فى وجه معاوية بعد أن سمع ما حكم به أبو دهمل على نفسه لو عاد الى التشبب بعائكة ، وضمن له رضاء يزيد عنه ، ووعده بادرار ما وصله به فى كل سنة ، فانصرف أبو دهمل ، وتجهز الحليفة للعودة الى دمشق

وحط قافله الحليفة لنصيب حظا من الراحة فى منتصف الطريق ، وانعقد مجلس السمر فى امسية وضيئة ، فرش القمر نوره فى بيداها ، وامتد

السماط والحدث السائل بين امير المؤمنين وصوفه ثم بدا لواحد منهم أن يسأله

ـ ترى يا امير المؤمنين لو سألك سائل عما سلك بين الناس من صلة فمادا يكون الجواب اعزك الله وحملك ؟

ابتسم معاوية فى وجه سائله لما أدرك ما يرمى اليه ثم قال

ـ والله يا اخى انى لأتصور أن بينى وبين الناس سعره اذا هم شدوها أرختها ، واذا أرخوها شددتها وانى لأحرص ان أراها ولو لا اراها أحد

وسرت فى المجلس همهمه حافتة ان الخليفة لم يحج فى تلك السنة الا من أجل انى دهمل

لقاء ذات ليلة

بدأت دولة الأمويين تلفظ آخر انفاسها المتعبة ، وأخذت شمس خلافتهم تؤذن بالمغيب منذ خلافة «يزيد الثالث» ومن بعده «مروان الثاني» آخر خلفاء بني امية وكانت خلافتهما تضطرب بالفتن وتسوح بالتوجس من مستقبل تحس المسلمون تدنيه نحو الخطى نحو مصير كبير

والقلق من حاضر مضطرب يرعد ، والتوجس من مستقبل يلوح في افق الحياة ، كلاهما سمة من سمات الهداية ، ويدير بأفول نجم يتهاوى ويسير بطلوع فجر جديد

كذلك كانت حال المسلمين في خلافة « مروان الثاني » الخليفة الأموي الثالث عشر والأخير التي انتهت بمقتله في أواخر العام الثاني والثلاثين بعد المائة الأولى للهجرة اثر دولة بني امية ، وبدأت شمس جديده تسطع في الأفق لتواكب الميلاد الجديد لدولة فتية دولة بني العباس

ومنذ اللحظة الأولى التي استبشر فيها « بنو العباس » بديبب الضعف في صفوف الامويين وهم يلمحون طلائع نجمهم يزيدا يوما بعد يوم مبشرا بزوال ايامهم ، أخذوا يجمعون صفوفهم ، ويوحدون رايتهم ، ويرسمون خططهم ، ويستعدون لليوم الكبير الذي تؤول فيه اليهم زمام خلافة المسلمين

في الكوفة ارض العراق ، كان همس يدور على استحياء ثم يتطاير الى الاسماع ، عن دعوة بني العباس وحقهم في خلافة المسلمين

وهناك فى خراسان ، كان « ابو مسلم » صاحب دعوتهم ، يبذل جهده ليهيىء القلوب لتلقى هذه الدعوة والانقضاض على حكم بنى فيه السوس ويوشك ان تتهاوى اسلاء بذروه صفحات التاريخ

ولم تكن الاموية فى الحقيقة فى عملة عن ذلك الهمس الذى يدور فى الكوفة ولا عن التدبير الخفى الذى يجرى فى خراسان ، لكنهم كانوا اضعف من ان يحاربوا الهمس بالعمل الصالح ، أو ان يصدوا التدبير بروى القلوب الذى بدا تتمزق ، كان اقصى جهد للأمويين فى تلك الفترة الحرجة فرعا تؤرق نومهم ، ويوحشا بحل النهار فى انصارهم ليلا واظلاما

كل ما استطاعه « بريد البالد » وأعوانه ، هو ان العيون والآذان على كل دار ، ودس الأنوف فى مجالس العامة والخاصة تتسممون رائحة السكوت والريب ، ثم يرجعون فى الحس بكل من يتوجسون منه أو يحسون بأنه صانع فيما يدبر لليل

منذ ان « ابو العباس » ان الخلافة صائرة يوما الى بنيهم احد كبيرهم فمل صغيرهم يتزود الى جانب حذقه لفنون المال والحرب ، سلاح من نوع جديد سلاح ذو حدين من الثقافة والمعرفة ، فليس مثله سلاح يضيء دياجير العقلة ، ويبدد ظلمات العقول والقلوب

وحلقات الدروس والسقف فى كل رحاب ومكان لها المقام الغرر فى اهتمام الملوك والسعوب على السواء ، وعلماء الاسلام والمسلمون منذ ايام الرسول صلوات الله وسلامه عليه ما فتوا يجلسون الى طلاب العلم والفقه والحديث ، ولا يألون جهدا فى ادكاء نور المعرفة فى الأذهان ليذاع فى أقطار الأرض هاديا للبشر وعاصما لهم من شرور الجهالة والضلال

ومدينة « الكوفة » ارض العراق ، كان لها القدح المعلى فى تخريج الفقهاء والعلماء ، وهى بعد كعبة القصاد لطالبى العلم والسميف على مختلف هواياتهم ومقاصدهم ، وفيها العلماء الاكفاء فى كل فنون المعرفة حتى يعقدون

حلقات الدروس فى المدارس والدور ، وفى المساجد والقصور ، بعد أن وقف المسلمون على حضارات الدول التى دانت لحكمهم ، وعلى ما بدخر به ماضيهم من أمجاد عريضة

وقد اشتهرت حلقة « ازهر السمان » فى ايام الخليفة الأموى « وليد الثانى » بأنها أكثر حلقات الكوفة قصادا من الأطراف البعيدة والقريبة للامبراطورية الاسلامية ، فهو امام فى علمه ، بارع فى حديثه ، مذخور القلب والروح بالايمان القوى المستوحد العقل والحافظة بكل ما وعاه الاسلام وقرآنه من فضائل واخلاقيات وآداب نبيلة

كان درس الليلة السادسة من شهر رجب لعام ١٢٦ للهجرة يدور حول خلافة « أبى بكر الصديق » وحرب الردة التى صارت معجزته الخاصة انفرد بها فى تاريخ الدعوة الاسلامية بعبر سريعة

وسار حديث « ازهر » سلسا تتناثر اللؤلؤ فوق بساط من المخمل ، وامتد وقت الدرس الى ما بعد الغروب ، فلا الشيخ العالم كف عن حديثه ودرسه ، ولا تاريخ الحلقة احد من طلاب علمه ، واصبح الدرس فى تلك الليلة متعة ذهنية للامام وللاميذه على السواء

ورخص ظلمة الليل على المدينة والشيخ ما انفك يحاضر تلاميذه ويجادلهم ويستثيرهم افكارهم ، وفجأة اقتحم اسماعهم صوت طرقات على باب الدار ، فمضى الشيخ بولده ليرى من يقصده فى هذه الساعة

وعاد ابن الشيخ الى حلقة الدرس يصحب تلميذا جديدا يلتمس مواصلة الشيخ على علمه الى حلقته ، فوافق من فوره حتى لا ينقطع حبل الحديث عن « الصديق » ومكرمات صحابة الرسول

ثم آن لحلقة الدرس ان تفرط عقدها النضيد ليثوب كل الى داره قبل ان يوغل الليل ، فاخذ تلاميذ الشيخ يسلمون عليه وينصرفون واحدا اثر آخر ولم يبق فى النهاية غير ازهر الفقيه وولده ، وطالب العلم الجديد

واسحى السبح أن سه السان الصامر الى مبارحة داره ، فأحد تتمرس فى هيئتـــه ، فرآه حس البيان وبتعل حصـــا مما يتعله سراة القوم ، وبدت لحيه السوداء مسدلة كأن موسى الحلاق فارقها مند لحظة

بعجب السيخ بيه وبن بفسـه وهو بلحظ آثار النعمة بكسو ملامح السان وهيئته ، وعهده بطلاب العلم والعلماء فى سطف من العس ، وللفقر والمسعه معهم صلات ووسائح !

وطال صمت بهيل سمل فاعه الدرس لم بكن بقطعه عبرهرولة ابن السبح ليجمع الأوراق المبعثرة هنا والكتب الملقاه هنالك غير عابىء بما بدور بين ابنه وبين بلميذه الجديد

وسق السيخ حجاب الصمت بنه وبين القادم الجديد فسأله من ابن بانى ؟ قال السان متبدا من هنا من الكوفه وقـــد قصدت بحصيل العـــلم على بدبك أبردف السبح قائلا أهلا بك وسرف فصـــدك بانى العرب برى من ارسدك الى ؟ احاب السان وعلى سفسه سمة سبرة وهل هنالـ من حاجة لأن برسدنى احد اليك بعد ان داع صبك وساع دكرك ؟ قال السيخ سأل الله حسن العاقبة والدكر الجميـــل لأى قوم بنتسب يا أخا العرب ؟

وكأن السان الذكى كان بتوقع هذا السؤال فقال للسبح دون بردد انبى وقومى بنتسب الى بنى الرسول عليـــه السلام واقيم بالـــكوفة وقد قصدبك طالبا الاستزاده من علم الحديث وآثار السلف الصـــالح فى حلقبك المبـــاركة

وعاود السبح سؤاله بعد ان بهربه انافه الحوار حبا وكرامة بانبى ، غير انبى ألحظ علبك ســـمات الأبرياء ممن لا بانون الى حلقتى ، فلعلك حاد فى الاستماع وصاحب حلد على الحفظ قال السان بعد ان طن أن أسئله السبح سنقف عند هذا الحد سعدنى ان ساء الله من حيره الحفاظ واعـــا لكل ما بقول

واستأنف السيخ حملقه فى هيبه الساب وهو يحاول ان يبعد الى ما وراءها اذن تكون قدومك الساعة بعد صلاة العصر من كل يوم على ذهن حاضر وقلب صاغ ولكن خبرنى من أى فرع من الدوحه السومة العطرة ينتسب نافتى العرب ؟

وبدأ الساب يتململ من وطء أسلة السيخ المدققة، واحس بمثل حصار اسلته وان حاول أن يعلمها بكساء من البساطة وافتعال السذاجة ، فقال للسيخ فى عصب كظيم انى من نسب بنى هاشم ياسيدى ، وما من حاجة لأن نقف من أمرى على أكثر مما ذكرت ، وقد حنثك طالب علم لا طالب مصاهرة!

ورأى للسيخ الفقيه أن سرها معركة ذهنية بينه وبين الساب ، فأخذ يداعب لحيته التى خالط السيب سوادها ، ويصوب نظره الى وجه الساب ، ولم يلبث أن ابتسم فى مكر مفضوح ثم قال لا عليك يا بنى مما سألتك عنه ما دمت صائقا به ، انما احسب ان أخذك من عنق بنى امه ، فلربما طول واحدا من العباسيين

وكاد الغضب يأخذ بمخانق الساب ، لكنه آثر أن يكتمه حتى يستبين مقاصد الفقيه من هذه المحاورة ، ثم قال فى اعتداد مكتوم ومادا يأسه بنو العباس من امم ياسيدى ؟ ألأنهم يعنون ان يرفعوا أعلام الاسلام خفاقة عالية بعد أن نكست على يد الأمويين ؟ أم لأنهم

وقطع فهمه السيخ العالمه حديث الساب فسكت عن الكلام ، وأخذ يحملق فى السيخ الذى اخذ يمسح الدموع التى تطفر من عينه من شدة نهجه بوقوعه فى الفخ الذى نصبه له ، ولم يلبث ان قال للساب المغيظ

— فهمت فهمت يا فتى العرب وكانت فراستى صادقة فى كشف حسبك انت عباسى وأقسم انك صالح فيما تدبرون ولكن كيف ذلك طاوعك قلبك على تعريض سيخ فى مثل سنى لبطش الخليفة الأموى لو علم رحالته وعسسه بك واحد من طلاب خلفتى ؟

وهنا نهيأ السائل لمغادرة دار الفقيه ، فقام من مجلسه وانتصب الشيخ واقفا بدوره دون أن تقول شيئا للسائل الذي مد يده مودعا وهو يقول للشيخ

— اما وقد طلع السوء بالأمويين ان يحرجوا على العلم والعلماء ، ويضروهم مطلبه لأهوائهم ، فلا مقام لي في حلقه علم هي وقف علي فيه دون غيرة ، خلافا لما امر به دين الاسلام الحنيف أستودعك الله ياسيدي

مد الشيخ يده ، وأمسك بيد السائل الرفيعة وابى ان يطلقها من يده الكسيرة ، ثم اندفع يقول ويديه ترتعش لا لا ورب الكعبة سأطلقك في حفظ ولو قطع الحليفة رأسي سأطلقك ولو كنت « ابا العباس » نفسه

واندفع السائل نهضته ملء قلبه ، وجاوب حدران القاعة اصداء ضحكته المدوية ، ثم قال للشيخ على عجل ابشر وابا العباس سيعان

ولم يعد الشيخ على كتب دفتيه فصاح مستعجلا اذن أنت «ابو جعفر عند الله » قال السائل على الفور نعم انا « ابو جعفر » العباسي يا ابرهة ، قال الشيخ قد عرفتني وعرفت داري وخلقني اللهم اني اسألك ان تحشرني في زمرة رسائك وان تلحقني بالصالحين من عبادك عدا يا امر الله ومسيئه تكون حضورك انا بعد صلاة العصر ، واذا سئلت من تكون ، فقل انك ابن سقيفة ابرهة السمان وانك كنت نديم في القصر

وقبل أن تكمل الشيخ وصيته للسائل ، اقتحم سمعهما صوت طرقات عنيفة على الباب تبعه صوت واحد من شرطة الليل يقول افتح الباب يا أبرهة

نظر الشيخ الى السائل العباسي كأنما يذكره بما اوصاه به واومأ اليه ان يعود الى جلسته الأولى وأن يلزم الصمت ، ولم يلبث ان قال بصوت عال سمعه الشرطي من الخارج يتفضل مكرما الباب غير موصد

ودخل القـاعة رجل السرطة ، وأخذ يجيل بصره فيما حوله ثم سـأل الفقيه من ذلك الرجل القابع هناك يا أزهر ؟ قال السيخ على الفور هذا أبو جعفر ابن سقمتى قدم لتوه من البصرة لزيارتنا لهفى عليه دهمه اليوم وهو جالس بعد عناء السفر قال السرطى وهو يغادر القاعة احذر يا أزهر أن أضبط عندك عباسيا فيكون فى ذلك حتفك قال ازهر وهو يضاحك السرطى ومتى علمت عنى أننى أهتم بهذا أو ذاك فاذلهما الله ، ما أنا الا واحد من المحرومين الذين لا حظ معهم ولكن الا تبقى حتى تحضر طعام العشاء؟ وهـا صبح السرطى بالضحك وهو يهول قبل أن يخطو الى خارج الدار اصلحك الله يا أزهر ليبك تكفى نفسك وعيالك

انقضت شهور وسنون ظل خلالها « أبو جعفر عبد الله » يحضر حلقة « أزهر السمان » دون أن تكشف أحد عن شخصيته المستورة ، وأحبه الفقيه حب الوالد لولده ، واحس أبو جعفر انه ترشف العلم سلسا ترشف الصادى من ماء عذب زلال

ويوم طاف المنادون فى شوارع الكوفة يعلنون موت الخليفة « يزيد الثالث » وامتام البيعة لمروان الثانى ، نظر أزهر الى أبى جعفر وهو فى حلقة الدرس ، ونظر أبو جعفر الى سحنه وانتسم الاسان دون أن يلحظ أحد من الحلقه سيا

وانقضت ايام « مروان الثانى » وكانت ايامًا عصيبة وثقيلة ظل المسلمون خلالها يرفعون أكف الضراعة بعـد كل صلاه الى فاطر السموات والأرض ، ليعجل بانقضـائها حتى شهدوا مولد الفجر الجـديد الذى حلموا بطلوعه وسعوا اليه

وبدأت نهاية الأمويين بمقتل حنيفة ، ويوم « ابو العباس عبد الله » فى خراسان ، اول خليفة للمسلمين من بيت بنى العباس ، وحملت اخبخة الرياح نبأه الى الكوفة فى شهر ربيع الأول لعام ١٣٢ للهجره ، ولم يمق الا الظفر بمروان الثانى هناك فى أرماض دمشق

وعاب «ابو جعفر» عن حلقه أرهر السمان ، فلم يعد الموقف يحتمل ابتعاده عن أخيه أمير المؤمنين الذى وفد الى الكوفه وارتضاها عاصمة للخلافة العباسية

وامسى الناس واصبحوا ذات يوم على شأ عظيم ، لقد طوى رحال ابى العباس بالخليفة الأموى البالى عبر والأخير (مروان بن محمد ـ مروان الثانى) واتجهت بجثته فى ارض مصر ، آخر أيام الامويين ، وانطوت صفحتهم بما حفلت من خير وشر ، وفضائل ونقائص

وافتقدت حلقه أرهر ذلك الشاب الهادىء الصامت ، ابن سفينة البحر الفقيه الذى قدم ذات يوم من مدينة البصره ، ويوم اعلن قدوم « ابى العباس عبد الله » الى الكوفه بدأ الفقيه درسه بالآيه الكريمة « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شىء قدير »

ولم تطل ايام « ابى العباس » أول خلفاء العباسيين بعد ان انهكته الحروب مع فلول الامويين ونزع الأسواك من الطريق لبعثه الى سلفه من بعده ، وانتقل الى رحمة ربه بعد مرض لم يمهله الا قليلا ودفن بمدينة الأنبار

وبويع بالخلافة « لأبى جعفر عبد الله » منتصف ابى العباس فى شهر ذى الحجة من عام ١٣٦ للهجرة

وقف « أرهر السمان » ذات يوم على باب امير المؤمنين « أبى جعفر المنصور » يحادل الحاجب ويرفض ان يقول له اسمه ، وفى النهاية صاح فى الحاجب قائلا

ـ قل لامير المؤمنين ابن سفينة امه التى تعمل فى البصره !!

وابتسم امير المؤمنين « ابو جعفر المنصور » بعد ان سمع ما قاله البه حاجبه ثم قال

ـ ادخل الينا حالا « ارهر السمان » وهيىء له فى مجلسنا افضل مقام!

رجل طويل الجلوس

لم ينم « عبد الملك بن مروان » خامس خلفاء بني اميه ، يوم هادىء عميق من ايام خلافة المسلمين ، مسلما نفسه في تلك الليلة من العام السابع والسبعين للهجره

وصل الرسول الذي بعث به « الحجاج بن يوسف الثقفي » الى مشارف دمشق ، وضوء الغروب الرمادي يحرجر اذياله رويدا من فوق النيوب والمآذن والقباب ، فبدو للرائي من بعيد كأنها الأشباح

وقبل ان تذوب خيوط السكون في ظلمة المساء الراجفة ، كان رسول الحجاج قد بلغ اول ابواب القصر المنيف الذي يقيم فيه خليفة المسلمين ولم يلبث الجواد الكريم ان صهل فجاة ، ساعة ان جذب الرسول لجامه في قوة ، واخذ يضرب الأرض بقوائمه ، ثم مضت لحظات فتحت بعدها كوة صغيره في صفحة الباب السميك ، وأطل من خلفها وجه صارم القسمات سألها لراكب الجواد عن نعته في هذه الساعة

قال الرسول في زهو كبير بلغ امير المؤمنين ان رسولا من قبل الحجاج في مكة يسعى لقاءه على الفور ايني والله أحمل نبأ ينتظره على اثر من الخبر المجد

وهنا لاذ ملامح الحارس واحد بعبوس في وجه الرسول ثم قال في اسهاب

— مرحى بالقادم من مكة السمحة حيث الأهل والأبناء سأبلغ مولاي على الفور ولست حين اذن حتى اعود اليك

وعاد حارس الباب لحظات حسبها الرسول دهرا من طول ما عاناه من وعثاء السفر ومشقة المسير حتى تسلح فحداه وتصعصع حسده القوى ، وأصبح فى شوق الى فراش وثير ، ونوم لا يصحو منه حتى تعود اليه نفسه

وتسلل هو نفسه بعطاء الخليفة الذى سأله فى تلك الليلة العريدة ، وتعدد فى خياله ما سيحمله من اسواق دمشق لزوجه وأبنائه واهله ، فتح الباب على سعته ، واذاه صوت الحارس يدعوه الى الرحيل عن جواده والدخول الى القصر ، بعد ان ادن الخليفة لمقائه على الفور

وصحبه احد خدام القصر ، وسار به فى ممرات طويلة تحنى على اليمين تارة ، ثم تعدل يسارا تارة اخرى ، تسلم الأقدام بغوص فى البسط السمنة وظلال الداخلين تترافص على جدران مقوسة بألوان راهبة مخلاة برخارف تأخذ القلوب والأبصار

وهمس الخادم فى أذن الرسول أن يتئد فى دخوله على امير المؤمنين الذى يجلس هناك فى صدر المكان فوق حصيرة من القطيفة السوداء ومن حوله حرة الجلساء وصفوة الخلصاء

قال « عبد الملك » حينما اقترب الرسول مرحبا برسول الحجاج وبأمانته الطيبة

قال الرسول العمر الطويل والنصر الجليل لأمير المؤمنين ايده الله ورعاه قد أراد الله بسلامة ارادته ، أن يطهر « عبد الله بن الزبير » وان يصلب فوق أسوار مكة ، وهذى رسالة الحجاج يا مولاى

وجالت أسارير الخليفة وهو يتناول الرساله ، وكاد فرحه يجعل ابن الزبير ان يفصحه وهو يقص احلامها ، وأخذ يقرأ ما كتبه اليه الحجاج فى حصار مكة الذى امتد الى اربعين يوما صاف فيها أنفاس الناس حتى

صاقوا بحياتهم وتاقوا برجون موت ابن الزبير خلاصا لهم من مسـقة ما يعانون

وجرع عبد الملك حين قرأ ما أقدم عليه الحجاج من ضرب البلد الأمين بالمجانيق وكرات النفط والرمث المستعل حتى استسلم ابن الزبير ، فضرب عنقه وعلق جثته فوق اسوار مكة لتهشمها الطيور وجوارح النسور

ومسح الخليفة دمعة كبره اسالت من عينيه حين ذكر خـلافة ابن الزبير التي امتدت في ارض الحجاز تسع سـنوات انتهت بمقتله على يـد الحجاج الذي لعنه المسلمون منذ بدأ يحاصر مكة ، تسماح بني امية

في تلك الليلة راودت عبد الملك في نومه الهنيء أحلام كثيرة عن ايامه المقبلة ، رأى من وراء استارها السعيدة انه خلص من نقمة معاويه مسلما خلص من « ابن الزبير » وفي الصباح دعا برسول الحجاج ليـنال عطاءه ، ولتحمل معه رسالة أمير المؤمنين الى واليه على امارتي مكة والمدينة

وظلت احلام « عبد الملك » تراوده في نومه ويقداعـه في يقظتـه ويسير الله بان أمور الخلافة والمسلمين قد استقامت واطمأنت اليه أزمتهـا ، ثم لا تلبث الأنباء السيئه أن تأتيه وتؤرق نومه من جديد

في ارض العراق والجزيره ، كانت رحى المعارك دائرة على اشدها بين جيوش الخليفة وقوات « زفر بن الحارث» الحارثي، وسليمان بن صرد كبير الشيعة ، والمختار الثقفي رجل الفتنة الـكبير الذي اوشكت دعوته الحسنه أن تعيد الى قلوب المسلمين ، فيرتدوا عن دين الاسلام ، خير دين انزل للناس

وفي ولايات فارس ، لا تألو دعاقـة المجوس وعباد الـنار جهدا في تحريك الخمر من تحت الرماد لتعـود الفرس الفقرى الى دينهم الأول دين الاكاسرة وحضارة العجم ، ومن ثم تنقضون على عمال الخليفة يطردونهم ويقتلونهم ، او يكفون من المناوءه بالعصيان عن دفع الجزية للمسلمين

وهناك في بلاد السند ، ستق ملوكها وامراؤها عصا الطاعة وبطيحون باتفاقياتهم التي قطعوها على أنفسهم ، وتتسرون على ما تقرفه قراصنة بحارهم حين يقصون على قوافل المسلمين وسفنهم في بحر الظلمات ويسلبون الاموال والأرواح ويسبون النساء والأطفال

ادرك عبد الملك ان ما لحقه من مساوئه « عبد الله بن الزبير » يتضاءل الى جانب تلك الهزائم المفجعة التي تصدع بنيان الاسلام الشامخ ، بسبب ما يجري في العراق وارض الجزيرة تارة ، او في فارس وبلاد السند تارة اخرى

وتسأل عبد الملك نفسه ترى هل أتقرب خطة المسلمين من أعداء الرحمان الذين يصوبون للاسلام عظمته وهيبته مثلما توفر له ايام الدعوة الأولى وفتوحاتها الرائعة ؟

ويجيب عبد الملك على تساؤله لنفسه لا ان الاسلام لم يزل يتسامحا عملاقا ويجب في كل يوم ولحظة رجالا يفدون غيره عليه ويذودون بالروح عن حياضه هاهو ذا « الحجاج » سيف الأمويين المسلول قد أعانه الله حتى يصح في ان يزيل من طريقهم مساوئا صلبا عنيدا دامت جلافته في ارض الجحاز بضع سنوات طويلة اوشك الناس خلالها أن ينسوا ان الخليفة الشرعي ، هو ذلك الأموي الذي يقيم في دمشق

« الحجاج بن يوسف الثقفي » ماذا لو يتدبه لامارة فارس والعراق، واسندت اليه احمادها فتسهما وبأدب المارقين والمفسدين فيهما ، حتى تستعيد الاسلام هيبته ويعيش الناس في امان ؟

وقبل أن يجب « عبد الملك » في هواجس نفسه ، يجب الى «الحجاج» يعينه من امارتي مكة والمدينة ، ويوليه امارتي فارس والعراق فهل ان يستطيع الداء وتتعذر فيهما اصلاح الحال

وقدم « الحجاج بن يوسف الثقفي » من مكة ، ودخل مدينة «الكوفة» قبل المغرب ذات يوم من عام ٧٥ للهجرة وفي رفقته اثنا عشر رجلا من حلصائه ، واتجه فور وصوله الى المسجد وصعد المنبر وهو ملثم بعمامة حمراء واجتمع حوله الناس وهو ساكت اطال السكوت ، ولما صاق المسجد على سعته بالناس ، كشف اللثام عن وجهه ثم قال

انا ابن جلا وطلاع الثنايا متى اضع العمامة تعرفوني

واندفع الحجاج يسير في اسماع الناس وعيونه وبشر بسهم بهدفه وقرأ عليهم كتاب امير المؤمنين بدوليه ، وطلب اليهم اخلادهم الى الطاعة واتباع ما امر الله به او تكون السيف حيث ما يردع العصاة والمارقين واعداء الله والدين

ثم غادر الحجاج مسجد الكوفة متجها الى دار الامارة ، بعد ان حمل الرماح كلماته الملهمة الى الدور والاسواق والقصور والى كل بقعة في المدينة الكبيرة

على ان الحجاج في الحقيقة لم يكن راضيا كل الرضا بتكليف الخليفة له ان يضبط امور فارس والعراق ، وكان يود من اعماقه لو بقي هناك في مكة ريثما يهدأ انقاضه الناهضة ، ويندمل الجراحات التي خلفها حرب « عبد الله بن الزبير » التي زرعت في كل دار ساحة على قتيل وماتما على شهيد

لكن النفس الكبيرة التي يحملها الحجاج ، لم تضق كل الضيق بهذه المهمة ، بل هي في الحقيقة قد طاب بها مقاما بطيب كل نفس عالية طموحة بحاجل المهمات ، مع ما في هذا الاختيار من تولي امارتين كبيرتين من مقاطعات جديدة يدخرها له امامه المفضال

وتمضي الأيام والشهور بالحجاج « امير العراقين » وهو بالكوفة تضعف الأمور التي اختلت مواريثها ، وتولي اختياء عماله على امارات

العراق تارة أخرى ، وعلى امارات فارس تارة أخرى ، وتطارد فلول الفتنة فى الأطراف البعيدة ، وفى خلال ذلك الجهد الكبير ، لم يكن ينام فى الليل او يهدأ بالنهار الا قليلا

اعباء الحكم ومسئولياته الكبيرة واعباؤه الثقيلة ، لا يرى الناس منها غير ظواهرها ، ومن ثم يحكم جهالهم على ما يرون من سطحها دون الغوص فى الأعماق

وحين يفقد الحاكم يوما ليحقق الخير والأمان للمجموع ، يعمى البصائر عن حكمته ، ولا يرون الا قسوته

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

ويوم جرح الحجاج لفتال « سنبيس » الحارجى الذى روع الآمنين فى الكوفة واقتحم عليهم الدور والقصور والأسواق وحصد الآلاف من أرواح الرجال والنساء والأطفال ، ثم طغى فى الهتافة وأراح الناس من شروره وآثامه ، قال الناس يومئذ الا ماإاعلظ قلب الحجاج واقسى نفسه انه والله سفاح لا يطيب نفسه الا بارافة الدماء !!

ثم جاء وقت امسى فيه الحجاج وأصبح مشغول القلب والخاطر بأمور الكوفة أكثر من شغله بما يجرى فى خراسان وفارس وبلاد السند ، بل وفى أرض الحجاز نفسها ، حتى أوشك ان يفقد أوفاقه وأثامه فى القضاء على المفاسد القريبة دون البعيدة

فى الكوفة ، رأى الحجاج الناس يظلم بعضهم بعضا القوى منهم يذل بقوته على الضعفاء ، والثرى منهم وقد جمع اموالة من كسب حرام ، لا يستطيع الا أن يسوم الفقراء سوط عذاب ، ويرجو لو يعيد الأرض فلا يبقى فوقها فقيرا او معورا ، ولو كان بعد الله يطلب سلم كلمة الدرهم والدينار هى العليا بها يسترى الدمم وتتم صفقات الكسب الحرام، أو تتولى عامل حرب الضمير عملا ميراثه شقاء الضمير

على أن أطلع ما كان على الحجاج ويقض مضجعه ، هو انقسام الناس في العراق وغير العراق شيعا واحزابا وأهواء ، وكلهم يحترق لمعصمهم بعضا احقادا سوداء ، وتضمر القلوب من الضغائن ما يرجح رواسي الجبال ومن لم يكن متمما لهذه السيعة او ذلك الحزب ، فقد هان شأنه ، وضاع حقه ، وبات كالريشة في مهب الرياح الهوجاء !

* * *

انعقد مجلس الحجاج في ليلة النصف من شعبان للعام السادس والسبعين للهجرة مثلما ينعقد في كل ليلة ، وكانت هواجس الحجاج تتطرح في نفسه وهو يتمالكها دون أن يفصح ملامحه لصامتة عن شيء ظل صامتا عروفا عن الكلام ساعة وبعض ساعة ، اطلق بعدها زفرة طويلة حارة ولم يلبث ان سأل أقرب جلسائه

— من يدلني على رجل يصلح كبيرا لشرطة الكوفة ؟

انهض السؤال على اسماع جلساء الحجاج كالصاعقة وكان ماعنا يحمل في لفاظه ما ينوء به امير العراقين في تلك الآونة من جلافة عبد الملك بن مروان

وصمت الرجال كأنما لم يسمعوا سؤال الامير وكان صمتهم اطلع من أي كلام في تلك اللحظة ، ثم تلاقت في النهاية أبصارهم على صفحة وجهه لعلها تستشف ما وراء السؤال المباغت من غموض وهواجس

على ان صمت الرجال قد طال في الحقيقة أكثر مما يطيق الحجاج ، فلم يلبث ان اطلق زفرة عاصفة احسوا بلفحها يلسع وجوههم ثم قال

— تكلموا أيها الكم ترامى يطلب اليكم ان ترجحوا الجبال من اماكنها او تبلبلوا الأرض طهرا لبطن ؟ اريد رجلا رجلا يصلح شرطيا أعهد اليه أمن المسلمين هنا في الكوفة

وبعد ان تلاقت نظرات من فى المجلس قال اقربهم

— اصلح الله الأمير وحمله بالصبر والعافية دخل والله فى طبا البلد تتصد بلدا آخر غير الكوفه حيث تقيم الأمير فوق ارضها ومن ثم تمتنع عليها عوائل المارقين

وهنا اطلق الحجاج ضحكه مدويه اربجت لها جدران القاعه الفسيحة ثم اردف

— هل اريد سرطنا للكوفة يحمل عنى امورها حتى افرغ لما هو أمامى ووراثى من عظائم الأمور ، ام تراكم حسبتم شئون المسلمين تساس بكلام تفرغ هنا وتسار هناك ؟

ادرك الرجال اخيرا ما يرمى اليه الحجاج ، فتحرك فى اذهانهم دوافع الكلام ومسالك الأحد والرد ، وتراجعت فى عقولهم شتى الافكار التى توافق هواه وتحقق مرماه ، وما كان الحجاج آنئذ يحب الانفراد برأيه ،بل كان يميل الى ان يستمع من هذا وذاك من خلصائه ، ليستقطر من عصاره فكارهم أكثرها نصحا واحزمها مرمى

قال اقرب الجلساء اى الرجال تريد ايها الأمير ؟

قال الحجاج اريد رجلا طويل الحلوس ، دائم العبوس ، لا يحنى فى الحق على حقد وبغضاء ، ولا تقبل فى الباطل شفاعة قرب او صداقة

ولم يلبث الرجل أن قال بعد لحظة تفكير قصيرة اذن عليك بعبد الرحمن بن عبد الشمسى ، وليت الأمير يبعث اليه قبل ان يعود الى مكة ، فما عهدناه الا طاهر الباطن والظاهر

وأمن كل من فى المجلس على هذا الراى واحدوا سيوقون الى الأمير ما تركى التميمى وتؤهله لما سيولى اليه الحجاج ، فلم يلبث أن صفق لحاجبه وطلب اليه ان يبعث على الفور برسول يدعوه الى القدوم

وذهب الرسول من فوره الى دار الصيافة فأبلغه حارس الدار أن « عبد الرحمن بن عبيد التميمى » قد غادرها منذ قليل ليرحل مع القافلة المسافرة الى مكة

قال الرسول للحارس ويحك أيها السقى ، ان مولاى بطلبه الساعة فكيف اعود اليه بدونه أى طريق سلكته القافلة ؟

قال حارس الضيافة لو حثت جوادك لاستطعت ان تلحق بها على مسارف الكوفة

استدار الرسول بجواده الأسمر بعد ان لوى عنانه وعمر مهمازيه فى اسفل بطنه ، فانطلق كالسهم بين شوارع الكوفة وبين من ورائه غبارا كالسحب ، ولم تكن شمس النهار قد مالت بعد نحو المغيب ، حين أبصر على مرمى البصر اذيال القافلة تحد فى سيرها لتبلغ اول محطة تبيت فيها الليل حتى الصباح

ورفع الرسول عاليا صوته يطلب الى القافلة أن تتوقف ، وعندما سمع الدليل صوت الرسول ، رفع ذراعه اشارة الى الراكبين بالوقوف وسرعان ما تكشف له القادم من بعيد

ووصل الرسول الى حيث وقفت القافلة واحد ينادى على عبد الرحمن التميمى لتبلغه رسالة امير العراقين وافترب « عبد الرحمن » من الرسول وهو يقول فى دهشة وماذا يريد منى الجحاج وقد ودعته فى الصباح وأذن لى فى العوده الى الديار والولد ؟

واستطرد عبد الرحمن يقول معتذرا وهذه القافلة تراها ستتقى هكذا فى العراء دون الفى الجحاج واعود اليها ثانية ؟ الا ما احمقه ؟

وطاف سبح ابتسامه على وجه الرسول قبل ان يقول لعبد الرحمن ليك يا سيدى تعود بضاعتك ثانية الى الكوفة وتدع القافله تواصل المسير

ولشد ما عجب عبدالرحمن من كلام رسول الحجاج وأحس أن وراء الأكمة ما وراءها ، ومن ثم نظر من هذه الدعوة المفاجئة وفاقلته توشك ان تعصف في بطن الظلام والصحراء

وحدثته نفسه وحدثها نرى هل اعتاده احد عبد الحجاج بما يسيء ويحط من قدره مثلما تتناول الناس سيرة بعضهم بعضا بمقالة السوء والتهم السيئاء ؟ هل بلغ الحجاج بهتانا وزورا أنه ضالع فيما يدبره الخوارج والسبعة والطالبون وفلول أتباع ابن الزبير ؟

على ان عبد الرحمن لم يعجب في الحقيقة من هذه الهواجس التي داهمته وهو في طريق عودته الى الكوفة ، فقد كانت الأقاويل والتهم تتطاير مع الهواء في كل يوم وليلة اباان تلك الفترة الهوجاء من حكم بني امية ، ولم يكن أيسر من اتهام الرجل أي رجل بأنه يروج لشيعة ابن ابي طالب أو يدعو للخوارج ، أو يلتف بأعوان المختار الثقفي ، فيرجم به في الحبس ثم يطاح عنقه ويلقى بعد ذلك جثته للعربان وحوارح الطير

وتوارت هواجس عبدالرحمن لما وصل مع الرسول الى دار الامارة ، ودخل الى حيث يجلس الحجاج في نفس القاعة التي لقيه فيها مودعا في الصباح ، ورآه في حالة جلسة هدأت من روعه وطيب خاطره المضطرب

وقام الحجاج يستقبل صديقه عبد الرحمن ويعانقه كأنما لم يره منذ دهر طويل ، ودعاه الى الجلوس بجانبه وهو يوسع له في حفاوة صادقة

وراد العجب بعبد الرحمن وعاوده الهواجس من جديد ، غير ان الحجاج قطعها عليه حين بادره في ود ظهر صديقه المجالس

— اي اخي ورفيق صباي عبد الرحمن ، تراك تعجب رجائي لو طلبت اليك ان تتولى شرطة الكوفة لتعود للمسلمين الأمان على ارواحهم واموالهم وقد أوشكت الأمور أن تصير فوضى لا ضابط لها ولا رادع ؟

لم يحب عبد الرحمن فقد فاجأه سؤال الحجاج على غرة ودون تمهيد ، وأخذ ذهنه يروح ويجيء فى اضطراب كأنما مسته رعدة من الحمى ماله وسرعة الكوفة وهى ليست بموطنه ، ولم يأت اليها الا راغبا للحجاج بعد أن بدنه الخليفة أمرا للعراقين ! انه كان فى طريق عودته الى مكة حيث اسرته وعياله وسنون حياته التى ألفها دون متاعب أو شغل بشئون الناس واساليب الحكم

ولما احس بطول صمته نظر فجأه فى وجه الحجاج ثم قال

— ليس لها يا حجاج وليست لى اختر رجلا غيرى واعفنى يغفر الله لى ولك

سكت الحجاج لحظة ثم قال فى غضب كظيم

— اصلحك الله يا عبد الرحمن ورد اليك عقلك قد اوشكت والله أن تخيب رجائى فى مروءتك ترى هل استعمل اعداء الدين لضبط امور المسلمين يا عبد الرحمن ، وانتم هنالك فى الحجاز تنعمون بالنوم الهنىء والعيش الرغيد ، وتتوهمون دوامهما دون جهد او مشاركة فى حمل جزء من العبء ؟

وهنا اطرق عبد الرحمن ، وساد القاعة صمت لم تتردد خلاله سوى زفرات الحجاج التى ظل يطلقها كأنها حيوط من لهب ، ثم ساور عبد الرحمن خجل شديد اذ احس بخروج صديقه ولهفته الى اسداء الرجال فى تلك الآونة العصيبة التى يحتاجها حكم بنى امية فى العراق وفارس وغيرهما من الاقطار الفريدة والعقدة على السواء

رفع فى النهاية رأسه وسبح ناظريه فى وجه الحجاج الذى واجه نظراته الصارمة بمثلها ثم اندفع « عبد الرحمن » يقول على مسمع من الحاضرين الذين احدثهم حدة الموقف

— قد قبلت ما استعملتني عليه أيها الأمير ، ولكن على شرط واضح واتفاق يستقيم سيفي مثل حد السيف المسحود

قال الحجاج مشهورا وما هو شرطك يا عبد الرحمن ؟
اجاب عبد الرحمن

— ليس اقبل قيامي على شرطه الكوفة الا ان تكفيني تدخل عمالك وولدك وحاشيتك ، وليس اقبل في الحق ساعة كسر ، ولو تكون حلقة المسامير نفسه

قال الحجاج مسهجا

— قبلت شرطك يا عبد الرحمن دون زيادة او نقصان منذ العهد بطوف ساد يعمل في الناس بوليك شرطه الكوفة وما استرطته علينا لأحد الحق سبيله والعدل مجراه وليس لسلطانك في مقامك الحديد على بركة الله

* * *

لم يمض عهد « عبد الرحمن بن عبد الغيثي » في تلك الليلة ظل ساهر الطرف يقلب امره وامر الناس على كل الوجوه انها وظيفة سياسية لم يكن له عهد بها من قبل وليس يدري اي السبل يسلكها في ضبط امور هذا البلد الذي اختلط فيه الحابل بالنابل ، وليس الباطل فيه بوب الحق ، وباب اقدار الناس وارواحهم وامواتهم مرهونة بانكارها على هذه الفئة او هذه الطائفة !

ويسائل « عبد الرحمن » نفسه ترى ارجح سبل المواعدة واللين والموعظة الحسنة ، او تكون حد السيف حين فصل بيني وبين الناس ، وهذا كتاب الله بين اليدينا يهدي الناس الى صراط مستقيم ؟

لقد طل « عبد الرحمن » فى تلك الليلة بها لأفكاره الغيلة بحدته هنا وبدفع به هناك ، ثم يطوح به فى حانة المطاف الى مكة التى عاب عنها وبرك فى بطحائها اهله وولده وبحاربه واموالهم وسود حياته ، وفى النهاية بعلمه الموم مع اولى خيوط الفجر الذى بدأ يلوح من بعيد

هب عبد الرحمن من عمق النوم على صوت طرقات عنيفة على باب الدار سمع صوت راعد ينادى فى الناس

— يا اهل الكوفه لسمع الدانى وبلغ القاصى يامر الحجاج بن يوسف الثقفى أمير العراقين ، قد تولى امر الشرطة منذ اليوم « عبد الرحمن بن عبيد التميمى » وعلى كل صاحب حاجة الا يلجأ اليه الا بالحق او يبرأ منه الذمة سيقوم المعوج بالحزم ، وسيأخذ الحق بالعزم وقد أعذر من انذر يا اهل الكوفة

انسم عبد الرحمن وهو يصيخ السمع الى كلام المنادى يدور به من دار الى دار فقام من نومه وغادر فراشه ، وأخص به غلامه الواقف خارج غرفته ، ولم يلبث ان قر على الباب ودخل اليه يسأله عن حاجته قبل ان يخرج الى ساحة الدار

طلب عبد الرحمن الى غلامه ان يهيىء وضوءه ثم قام وصلى واردى ثيابه وتمنطق سيفه ، وخرج الى ساحة دار الشرطة ، فرأى الحرس يصطف لاستقباله ، ثم يقدم كبيرهم يخاطبه

— نسأل الله لك العون على احقاق الحق ليسود العدل حتى لا تسمع اهات المظلومين والحيارى ، وسنحقق ان شاء الله رجال حرسك اطوع لك من بنانك ، والله ناصرك

وسأل عبد الرحمن ما اسمك يا فتى العرب ؟ اجاب رئيس الحرس دؤب بن سعيد الباهلى من الطائف يا سيدى الأمير قال عبد الرحمن وكم عدد رجال الشرطة هنا فى الكوفة يا دؤب ؟ اجاب رئيس الحرس

كنا ثلاثمائة يا سيدى الأمير وأصبحنا اليوم مائتين بعد فقدنا لسيبه الغارحى ، وان ساء الأمير الاكتفاء بعددنا بدلنا أرواحنا رخيصة فى ضبط الأمور بالحق والعدل ، وان سبب زيادة عددنا ، كان خيرا وبركة

وقبل ان يسترسل الحديث بين عبد الرحمن ودؤب ، سمعت صرخة امرأة تدوى من بعيد ، ثم أخذ صراخها يقترب رويدا من دار الشرطة ، واستطاع عبد الرحمن ان يميز بعض كلمات من خلال الصراخ النائح وارحلاه واروحاه

اشار عبد الرحمن الى دؤب أن يحضر المرأة ليسمع قضيتها ، فقال من خلال دموعها الهامية

— لم يأب ورب الكعبة دنيا ولا اثما كان روحى يسع سمكا صاده من ماء أمام دار « عقيل بن مندر » ويعقبه « ياسر » خادم عقيل بنصف السمك او يعطيه درهمين ، وروحى صياد فقير يكدح ليعوله ولا يملك حتى قوت يومنا ، وحين اسمهلهروحى حتى المساء، طمعه يحضره فى بطنه فماذا لساعته يرى هل يرضى الله لعبده كل هذا الهوان ؟

خرجت نفس عبد الرحمن واحس شيء غليظ يعتصر قلبه حين راى أسمال المرأة النائحة واحراء من بدنها الأعجف تبدو من خروق ثوبها المهلهل وحملق طويلا فى وجهها ، فلم ير فيه أثرا للدموع كانت فجيعة المرأة فى فقد زوجها أعمق من ان تبدل من أجلها الدموع ، او كأنما كانت هذه دموع نضبت ثم تحجرت من هول الوجيعة

ودخل رجال الشرطة يمسكون بالسياف الجانى وفى يده سلاحه الذى يقر به بطن الرجل القتيل ، واخذ « عبد الرحمن » يتفرس فيه بعينين نافذتين فلمح فى ايماءاته ضلعا يبدو انه اكتسبه من سيادته الذين يعمل عندهم ، ولم يلبث ان سأله أهذا سلاحك ؟ قال الفتى فى رهبة مستور ايى وما

أحمل ملك لسادتي آل عقيل بن مدر شيوخ تجار الكـوفة قال عبد الرحمن وهل أدن لك سادتك مثل الناس في الأسواق جهارا دون حسـبة من قصاص ؟ قال الفتى مستهزئا اي قصاص يا سيدي ؟ لقد شهرت الرجل أكثر من مرة ليصطاد في مكان آخر فلم يعأ بي قال عبد الرحمن وهل ملـكت مثله دحلة لتسح او تمنح كما تساء ؟ حربي هل قلت الرجـل تحتجزلـه هذا ؟ قال الفتى المرهو كان يريد قتلي فعاجلته قبل ان يقضي علي

وهنا اشار عبد الرحمن الى دؤب ان يمسك سلاح الفتى القاتل ، وطلب ان يبعد تحمل عليه ، ثم اختار من بين الرجال واحداً وطلب اليه ان تطعن القاتل في بطنه بنفس سلاحه طعنة تبعد من قلبه الى ظهره

وخر الفتى القاتل صريعا على الأرض وهو يلفظ انفاسه ، فامر عبد الرحمن ان تحمل جثته الى دار سـادته ، كما أمر لأرملة الفتيل براتب من بيت مال المسلمين

وقبل ان تغيب الشمس في ذلك اليوم ، احب عبد الرحمن أن يطوف بشوارع الكوفة ، وان يتفقد الأسواق ، وأن يرى وجوه الناس بعـد ان يلمهم ما جرى لغلام آل عقيل ، وبينما هو يتجول في السوق الكبرى ، تقدم اليه رجل مهيب الهيئة انتدره قائلا

— يأبى انت وامي يا حبر من وفد الى بلـدنا من امراء السرطة نسـأل الله ان يحرمك عن الفقير خيرا ، وعن الضعيف قربا الى أرحم الراحمين قد حكمت فعدلت فمررت

* * *

أحس « عبد الرحمن » بصدق ما استقبله به الناس في ذلك اليوم ، وعاد الى داره رضي الخاطر ، وطلب الى دؤب أن يذيع في النـاس أن دار السرطة ستبقى مفتوحة الأبواب بالليل والنهار من اجل امن المسلمين ومعاشهم

وعدوهم ورواحهم ، بل ومن احـل المارقين والمفسـدين حيث يلقـون القصاص بالعدل والقسطاس

وأمسى اهل الـكوفة واصبحوا ولا حدث لهم الا عن أميـر الشرطة الحديد وصلابته في احد الحق ، ونسوا لو بطول حتى يردع كل جبار مدل بما يملك من جاه ومال

نعم كان آل « عقيل بن منذر » عنوانا لتسلط الأغنياء على الفقراء وبحر الأقوياء على الضعفاء في مدينة الكوفه بالجاه والمال كانوا يرتكبون المعـاصي والآثام ، ويغتصـبون ما ليس لهـم ويضـعرون حـدهم لأي شريعة او نظام كان القانون يصل الى بابهم ثم يقف ضعيفا حائرا او يضل الطريق اليهم انصارهم وضائعهم مستون في محالات الأعمال والأسواق ومناصب الدوله ، ومن ثم لا يجرؤ محلون على مواجهة تجرهم وطغيانهم كانوا يهوون أوراق الفقـراء في قرصه باغيـة ، حتى بات أمرا مألوفا ان يجدوا ويفعلوا ما يريدون بالحق وبالباطل على السواء

على أن القصاص الذي أوقعه امير الشرطة الحديد بغلامهم « ياسر » في ذلك اليوم ، كشف لأبصارهم صفحة جديده في تاريخ مدينة الكوفة ، ولقد أوشك الغضب ان يسـتبد بهم وان يجدهم العـزه بالاثم ، لولا أن كبرهم نصح لهم بالتريث ريثما تتكشف لهم نوايا أمير الشرطة الحديد

في تلك الليلة بعينها عند الرحيل في يوم هادىء وهو راض عن نفسـه غاية الرضا بعد ان أصدر اول حكم له ، عبر أبه صحا من عميق نومه بعـد انتصاف الليل على اصوات هرج في الساحة الخارجية لدار الشرطه ، فجد يصيخ السمع الى حـديث يدور بين « دؤب » رئيس حرسه وبين أحـد رجاله

— رأى حيران المرل المحترق تتسلل الى سطح الدار وتسكب الزيت ثم تشعل النار التي لم يلبث ان أتت على ما في الدار من متاع ، ولولا أن غادرها اهلها لراحوا طعاما للنيران

— وأين هم شهود الحادث ؟

— انهم يقفون هناك ، ولولا شجاعتهم وجهدهم فى دفع النار عن دورهم لاحترقت هى الاخرى

— اذن ادخل الحانى الى الحبس رسما يصحو الأمير ، وعلى الشهود ان يعودوا الينا فى الصباح

وانقضت ساعات الليل الباقية ، فقام « عبد الرحمن » وضوأ وصلى الصبح ثم خرج الى الساحة فرأى الجموع الغفيرة تملأ المكان وتتطلع اليه، ولما ان اقترب الى وسط الساحة رأى عليهم صمت يلمع قطعه عبد الرحمن فى صوت عميق

— ايه يا حارق دور الآمين ، بماذا تدفع عن نفسك هذه الفعلة النكراء ؟

قال الرجل مستجمعا شجاعته ماطلبى فى سداد دينه وفى النهاية انكر على حقى وقال اذهب الى قاضى الكوفه

قال عبد الرحمن قال والله كلاما معقولا ولكنه لم يوافق هواك ، فاحرق داره وشردت اهله وعياله اين صاحب الدار ؟

وخرج رجل من بين جموع الناس يقول انا صاحب الدار التى احرقها هذا النار والله يا سيدى ليس له حق عندى ولا دين ، انما هى ضريبة الفقراء تدفعها لامثاله لكى يستمر حياتنا رغم انوفنا ، وقد اقاموا والله من انفسهم دولة داخل الدولة تساندهم فى نعيم آل اين مدثر والأمر من قبل ومن بعد لله ولك ايها الامير هاهم اهل بيتى وعيالى قد أصبحوا بلا دار تؤويهم وبلا عطاء يسر اعدائهم

وصاح رجل من بين الجموع انه ثلاثين عشره دراهم فى عوه كل شهر لكفف عنى اذاه اللهم خلصنا من القوم الظالمين

أسار عبد الرحمن الى رئيس حرسه ان يقترب منه ، ثم أسر في أذنه كلاما لم يسمعه غيرهما ، فذلف « دؤب » الى داخل دار الشرطة وغاب فيها لحظات عاد بعدها مع رجاله يحملون حطبا واحشابا كوموها في وسط الساحة ، والقى دؤب عليها بعض الزيت وأشعل النار حتى اشتعلت الشعلة الحمراء ثم حملوا الحابي المفيد بالحبال والقوا به في وسط النار المشتعلة

* * *

تلعب الحجاج اسماء «عبد الرحمن بن عبد التميمي» ومأساته بالعبارات والسطور وناهيك باوراق الصفراء ، فكان يسطر في وجوه جلسائه وخاصته ويبتسم في رضا

وترك عبد الرحمن دار اقامته المواجهة لدار الشرطة ، واوصى لنفسه غرفة بسيطة الاثاث في اعلى دار الشرطة وضع فيها حوائجه القليلة واتخذ منها مقاما له بالليل وبالنهار لا يبرحها الا لأمر جلل

وأدرك اهل الكوفة ان عهدا جديدا قد بزغ فجره في تاريخ بلدهم ، وان رحمة الله بهم شاءت ان ينعم لهم بعد الرحمن التميمي بعد طول ظلم وظلام لتخلص الصغراء من بؤس الأغنياء والضعفاء من جبروت الأقوياء ، ولتضع كل امر في نصابه بالحق والعدل

ومنذ انتقل عبد الرحمن ليقيم في دار الشرطة حرص على ان يعلم اهل الكوفة انه رجل طويل الجلوس في مكان عمله لا يبرحه لحظة واحدة بالليل او بالنهار ، وأنه لا يغفل في الحق ساعة أو ساعة حتى ولو كان من قبل امير العراقين أو امير المؤمنين

واقتضت اربعون ليلة على جلوس قبل صائد السمك الصغير واحراق الدار لم يسع خلالها ما يعكر صفو الناس او يكدر امنهم حتى استتب العدل بعد الرحمن فأخذ يسامر دؤبا ذات ليلة ويقول

— أى دؤب لما اليوم اربعون ليلة لم نمسك رحالك بأحد نرى هل كف المارقون عن عسفهم وافسادهم ، ام زالـ نحمى عن حقيقة الحال ؟

وابتسم « دؤب » قبل ان نحسب ان ما بدا من حزمك وعدلك ايها الأمير قد قطع الطريق على العاسس والطعـاه ، وادرك العيارون والسطار ان عليهم ان نفكروا مرتين قبل ان توسوس لهم السطان باركاب حرم ما

وسكت « عبد الرحمن » لحظة ثم قال واهل الكوفة ماذا تقولون؟

قال دؤب على الفور نمكن للأمر أن يحقق نفسه وسـمع نفله وادبيه ما نلهج به السنة العامة والخاصة على السواء قد حاور والله دكرلـ مدينة الكوفة الى كل نعمة فى ارض الحريرة ، وتمنى المسلمون لو يكون لك نفسه فى كل مدينة

* * *

صحا « عبد الرحمن » داب صاح على اصوات حلـة ووقع حوافر حمل بروح وتجىء حارح دار السرطه ، فاطل من نافدة عرفـه فلمح موكب « الحجاج » يتوقف امام الدار ، فعـادر على الفور فراسـه واردى بياته على عجل وحرج يستقبل أمير العراقين

قال الحجاج وهو نتفرس فى وجه عبد الرحمن ونحاول ان نسفد الى أعوار نفسه

ـ قد صـدقت والله فراستى فى حزمك يا عبد الرحمن ، وها هى ذى حواطر المسلمين قد سكنت وعادت نسمات الحياه نضىء فى قلوبهم ووجوههم من جديد لعلك راض عن عملك يا عبد الرحمن بعد ان اعدت للناس أمنهم وحفظت عليهم حرماتهم

قال عبد الرحمن متبسما أسأل الله لى ولك رضاه ايهـا الأمير وأن يغفر لنا ما لايرضاه من افعالنا وما نطوى عليه القلوب

أردف الحجاج راصا

ـ حت والله الك اليوم مسلمـا قـل رحيلى الى دمشق للقـاء امير المؤمنين ، على نعين بان الامور ستجرى بين يديك على حير ما ارجوه رسما أعود

قال عبد الرحمن في رعاية الله رحلك واوبك ايهـا الأمير ولو انى كنت راجيا اديك فى السفر الى مكه لرؤية الأهل والولد

ضحك الحجـاج في مرح صاحب ثم قال كلانا فى السوق الى الأهل سواء يا عبد الرحمن وسكت عبد الرحمن مستجما ثم اردف الحجاج

— لم يبق الا امر يسـير سترضى بالقيـام به من اجل المسـلمين ان شاء الله

قال عبد الرحمن في سبيل الله ودينه يهون كل امر ايها الأمير

سكت الحجاج لحظة واحد نعرس فى وجه عبد الرحمن ثم قال وهو يمد يده مسلما

ـ قد اصغا الى عملك سرطة البصره منذ اليوم ، والله يسأل أن يوفقك فى ضبطها مثلما ضبطت لنا الكوفة يا عبد الرحمن

"تحن الجوار ...."

لبست بغداد ثوبها القشيب واحتفت برحيلها وارتدت بعد أن شاع في المدينة نبأ رؤية هلال رمضان لعام ٢ للهجرة ، ولم تلبث التجار في السوق الكبيرة أن أخرجوا احسن ما لديهم من بضائع وبعرضونها على واجهات متاجرهم المفتوحة على جانبي شوارع السوق

كل أيام شهر الصوم في بغداد آمنة ، اعياد موصولة وهناء يطرب له النفوس ، فالحياة رخية ، وأسباب العيش ميسوره للفقير والغني ، وفي بيت مال المسلمين مدخر وافر للأعطيات ، والخليفة العباسي المأمون يسع ايامه بالبهجة والأمان ورغد العيش

وبغداد منذ أن شيدها « ابو جعفر المنصور » اصبحت عروس البلاد العربية ، وباتت كعبة القصاد من اقاصي الشرق واطراف الغرب ، وهي بعد، حاضرة الخلافة العباسية بدلتها عن دمشق حاضرة الخلافة في أيام الأمويين

حلقات الدروس والفقه والحديث مفتوحة في صحون المساجد وفي المدارس ، وحتى في الأسواق ، ودروب العلماء والأئمة والفقهاء مشتعل في كل ساعة من ساعات الليل والنهار ، طلاب العلم والمعرفة والراغبين في الاستزاده من علوم الاسلام وآدابه وشرائعه وسننه ، كما بغد اليها التجار من كل حدب وصوب ، من بلاد الصين والهند والترك وخراسان ، ليبيعوا في اسواقها طرائف بلادهم من حريرها وصوفها وخزف فاكهتها وما تنبته ارض الله الواسعة

دخل المتادون الى السوق وأعلنوا ان اول أيام شهر الصوم الكريم يبدأ منذ الغد ، وان من كان معسرا لا يأبه الرزق مسرا ، فسيجد في عطاء المأمون حليفة المسلمين ما يدفع عنه الضيق والمسغبة

ساعتها تطلع القوم الى السماء ، فرأوا مآذن المساجد تصيبها المنادل كأنها السمات ، وانفرجت السماء عن سماء عريضة أضاءت الوجوه وجوه تجار بغداد ، ووجوه الرجال والنساء والأطفال الذين توافدوا على السوق لشراء حاجتهم من الطعام والفاكهة والحلوى ، وصنوف ما تستغل به الشهر الكريم

وامتدت حركة البيع والشراء ، والأخذ والعطاء حتى جاوز الوقت منتصف الليل ، ولما أن هدأت الحركة ، حف تجار السوق بعضهم الى بعض وتصافحوا في اعتزاز ووجد وارتفعت دعواتهم الى الله أن يعيد أيام الشهر المفضل على المسلمين وهم ناعمون في رغد من العيش

لكن « عمار بن سراج الكوفي » ظل مسروبا في ركن قليل الضوء يتجاذل متحيرة بعد ان صلى المغرب والعشاء ، وأسند رأسه الى ظهر اريكته الخشبية التي اعتاد ان يستريح فوقها ، ويرقب العيان لخواطره الكثيرة

انه اليوم يحس عليه هم ثقيل ، ويكاد ان يعزى في أحزانه الى ملاحقه منذ أوائل شهر شعبان الذي انقضى

لم تلتقط أذنا « عمار » شيئا من صخب السوق الكثيرة في هذه الليلة الوضيئة ، ولم تشهد عيناه مواكب فتيان بغداد الذين احرجتهم من ثيابهم فرحة استقبال شهر الصوم ، ولم تحس بهجة القوم وهم يقفون امام المآخر يلتقطون سر عامر ويتهدهد قلوبهم آمال كبار

كانت هذه عمامة تشله تحجب عن ابصار « عمار » كل ما يجري أمامه في تلك الليلة ، لكنها لم تحجب عنه ذلك الشريط الطويل من صور العام الماضي بما حفل من مسرات وافراح

رأى عمار نفسه فى مثل هذا اليوم من السنة الماضية يلهب حماسة عماله ومساعديه ليفرغوا من فتح صناديق الحرير التى جاءته من بلاد الهند والصين ، ومن سر البسط الستة التى وردت اليه من خراسان ، ومن عرض اوانى النحاس والفضة التى صنعت خصيصا لحسابه فى مدينة بخارى ،والتى تعلم انها ترين موائد الخلفاء وأمراءهم وولاتهم ، ومن ذا الذى لا يعرف « عمار الكوفى » عميد تجار الطرائف التى تشتهيها الملوك والأمراء وسراة القوم فى بغداد وفى غيرها من بلاد الخريطة ؟

كل بسط عرفت فى بغداد عروض السرق وحاضرة العباسيين ، لا تخلو من طرفة ثمينة استرعت من متجر عمار ، فهذه ربما مصنوعة من قصاصات الذهب والفضة تتدلى من سقف غرفة نوم الخليفة فى قصره بالرصافة ،وتلك حشيه من الديباج المخطط بأسلاك الذهب ومحشوة ريش النعام ، هى المفضلة عند « زبيدة » زوجة الرشيد عندما يعقد مجلس سمرها وحواريها ، وذلك البساط الأحمر فى لون العقيق الذى اوصى عمار بصنعه خصيصا فى مدينة كاشان ليمشى عليه المأمون وعروسه بوران فى ليلة الزفاف ، وقد كان آية رائعة فى صناعته ونعومته وطوله الذى بلغ مائة ذراع ، مع أنه قطعة واحدة

وتبتسم عمار لنفسه وهو يسترجع حديث اهل بغداد عن ذلك البساط العجب ، وكيف لم يستطع عشرون رجلا حمله ، يوم رست السفينة التى تحمله ميناء البصرة ، وكان لا تحمل من خراسان غير بساط أمير المؤمنين

وتغص نسمة « عمار » حين ذكر ذلك اليوم الذى لا ينساه ، يوم ان ذهب الى قصر المأمون ليقيس بنفسه البساط بخطى قدميه ، ثم نقده فيه بما لم يكن يخطر له على بال

اين ذلك كله ، واين أرباحه الوفيرة التى افاضها الله عليه فى ذلك العام المبارك ، أين ذلك كله مما هو فيه اليوم ؟

انه اليوم لا يملك من تجارته وأمواله سوى ذلك المحر الذى حوى على عروسه بعد أن باخر وصول العواصف والسفن التى تحمل بضاعته وآماله

لقد وضع عمار أغلب راس ماله وأموال غيره من تجار بغداد فى هذه القافلة التى ستأتيه من بلاد الترك والسند والصين تحمل منها أنفس بضاعتها واجود ما تنتجه ارضها ، ولقد انقضى شهران طويلان على ميعاد وصولها المرتقب ولم يأت عنها نبأ او خبر

وهو لا يملك الا جانب جواد متجره ، غير داره فى الكرخ أرقى الأحياء فى بغداد وما تحويه من أثاث وجوائح ، والتى يعيش فيها مع «بدر» زوجته الوفية وأم ولديه هارون وجعفر

وأفاق عمار من سرحته على هزة رقيقة من يد جاريه « ابن طاهر » باخر البدور الملاصق لمتجره قال ابن طاهر أمائم انت يا رجل والناس يحتفل بقدوم شهر الصوم ؟ مالك يا عمار ؟

نظر عمار فى وجه جاريه الطيب ولم يجب كان أجابه اثقل من أن يرفعها عن صدره بالحديث مع باخر مثله ومادا يقول له لو طاب له ان يبادله الحديث ؟ هل يقول اليه انه قد بات مفلسا لا يملك غير داره ، وهى يدورها ستتعرض يوما للضياع ؟

رد على تحية جاريه بابتسامة من رأسه وأخذ يتمتم بكلمات غير مفهومة، وحين اثقل عليه ابن طاهر ، قال عمار وهو يطلق من صدره انفاسا ملتهبة ـ اصلحك الله يا ابن طاهر ، اذهب الى دارك وابنائك ، فان ما يسعلنى لا يقدر على تفريجه الا فاطر السموات والأرض

* * *

أغلق عمار متجره الكبير فى السوق ، ولو قد تركه مفتوحا على مصراعيه ما ضره ذلك فى شىء ، وانروى فى داره بالكرخ ينظر مصيره الفاجع ، ولم

طب رسل السريد من العور العربة والعيدة أن حاف يحمل الأسماء السية لقد عرفت قافلة الواحر العربية في بحر الظلمات وهي في طريقها الى ميناء البصرة عاصب القافلة نما يحمل من بضاعة تحاورت أثمانها آلاف الآلاف من الدنانير

لم يستغرب عمار ان يأتيه اخيرا ذلك النبأ المشوم ، وهو بعد ناجر عركته التجارب وصقلته صروف الدهر والأيام ، وهو لن يكون أول من أفلس من التجار ولا آخرهم ، والتجارة من قبل ومن بعد ، مثلها مثل الحياة ، يعطي ويأخذ حينا ، ويأخذ ولا يعطي حينا آخر !

ثم هبت عيد الفطر ويشر مع اقترانه أنفاس نهجه على ثوب بغداد وفي قلوب اهلها من رجال ونساء وأطفال ان هي الا أيام معدودات وينقضي الشهر الطيب الكريم ، ويحتفل به المسلمون في كل بقعة تؤدن في سمائها بذكر الله العزيز

ونفض عمار من ذهوله وكمده ذات يوم على صوت طرقات عنيفة على باب داره ، وحين خرج ليرى ما الخبر ، وجد السرطي يعلمه بانه في صبيحة الغد ، ستباع داره بما تحوي من أثاث ومتاع وفاء لدين عليه الى «ابن مدارع» احد التجار في سوق بغداد

لم يخرج عمار ، بل رضي بقضاء الله ، وعاد الى داخل الدار ليمضي فيها آخر ليلة له لقد خافه اليوم في تلك الليلة الثقيلة فجلس في ركن مظلم يعرفه التي يطل على بستان داره غدا سيغادر هذه الدار وسيخلو عن حي الكرخ الى غير أوبة ، وسيخرج من بغداد الى غير انيابه الحلوة اليانعة الى غير ما طاب ما في الحياة من مباهج غدا يغادر انيأوه بستان دارهم ومدارج مراحهم ولهوهم ليستقبلوا أناسا غريبة سوداء لا مرح فيها ولا ضحكات

وأمضت « بدر » زوجة عمار ليلتها الأخيرة وساعاتها الطويلة تجمع حوائج الأسرة وتحزم لفائف انيائها وبعد غدها للرحيل في غد وهي تكفكف

دمعها الهاطل اذا ما دخلت هذه العرفه او عرب ذلك الممر الموصل الى بستانهم اليانع بالأزاهير والحصره واسحار الفاكهه وحمائل الورد

ثم علت النوم « عمار » قرب مطلع الصبح ، وراودته فى أحلامه صور باهره وأحلة سائغة لم تعرض له من قبل فى أحلامه الكثيرة

راى فى حلمه سباط المأمون الأحمر تسد تحت قدميه الحى اصاح اليها سمعه، فأدرك من ورائها قرب الهتافات سمع صوت الدلال تطوف بالحى وتدعو الناس الى التجمع امام دار عمار ، فالنوم نوم بيع الدار بما تحويه من متاع ورياش

فتح عمار باب داره قبل أن تطرقه اليدى رجال قاضى بغداد ، واخذ يدعو راغبى الشراء الى الدخول لمشاهده الدار وعرفها وما فيها من المتاع ، لكنهم استحيوا من الولوج الى داخل الدار واهلها لم يبارحوها بعد

وفتح الدلال مزاد البيع بنفسه دينار رادها واحد من المشترين الى مائتين ، ورفعها واحد آخر الى ثلاثمائه ، ثم اعقبه راغب ثالث أوصل ثمن الدار الى خمسمائه دينار ، ولم ترد عليه أحد دينارا آخر

صرخ عمار ، وحاولت من الداخل زوجته « بدر » بالعويل ثم اندفع يقول لراغبى الشراء ايها اللصوص تدفعون خمسمائه دينار فى دار كلفنى بناؤها وحده الفى دينار ! وبلكم من عذاب الله يوم الحساب

وانبرى الدلال يسر حماسه القوم من جديد ، ولكن أحدا لم ينطق بحرف

وابتسم عمار فى مرارة بعد ان ادرك حقيقة الأمر ان الدين الذى أسهر من أجله داره للسع فى المراد ، هو نفس المبلغ الذى لم يرد عليه المستردون درهما واحدا ذلك جمجمائه دينار « لابى مارع » الذى نعى ان ياخذ مقابله دارا تكلف بناؤها وحده الفى دينار ، اما متاع الدار وفرشه ورياشه وطرافته فلم يدخل فى حساب ابى مارع الجشع الذى وجدها فرصة مواتية للحصول على أكبر شىء تأمل نفس !!

احد عمار بنفس فى وجوه المستردين فهمأ له انها وجوه ذئاب ركبت فوق جثمان فريسة ، ولم يلبث ان قال

ـ قد رضيت يا ابن مارع ان آخذ فى دارى جمجمانة دينار لا يراد عليها درهم واحد ، ولكن ثمة امر آخر لم يدخل فى حسابك

قال ابن مارع صاحب الدين وما هو هذا الأمر الآخر ياعمار ؟

قال عمار

مادمت قد حصلت بدهائك ومكرك على دارى مقابل دينك ، فكم تدفع بعد ذلك ثمنا لحوارك « لأبى دلف » سيد اهل الخود فى بغداد ؟ هاهى ذى داره بلاصق دارى

وكان عمارا اطلقها ملجمة او كالهه فلم يلبث الواقفون والمستردون ان ضحكوا ملء قلوبهم حتى طرب من شدة الدموع قال ابن مارع وهو يعالج الضحك

ـ اطلب يا عمار ثمنا لى بعد ذلك الهواء الذى تتنفس فى رحبة الدار وضوء الشمس الذى تتظللها فى النهار وسماع الطير الذى يدخلها فى الليل حتى يصلح الله مالى وحوار قاسم بن عبد الله «ابى دلف» ، ان حواره لى تكلفنى ثمنا وعدم حواره لى تكلفنى فى قليل او كثير

وفوجىء القوم برجل عاصب بـــدفع من البيب المحاور ويتقـــدم الى صاحب الدس وهول

ــ قد سمعت كل ما دار بينكم ، وارى انك لاتساهل ان تكون حارا لى ان أنا دلف بدفع لك الآن دينك على عمار هنا اذهب عنا لا أرحمك الله

وألحت الدهشه ألسنة القوم وهم يرون قاسم بن عبد الله «ابا دلف» يرمى بكيس الدنانير فى وجه ابن مبارع الذى انصرف يتحرج وراءه ابذال حربه ومن ورائه بقية القوم داهلون

وبلغت « المأمون » حكاية عمار وأبى دلف ، فبعث برسوله الى عمار ليحظى بلقاء أمير المؤمنين

وفى صبيحـــة يوم العيد ، شاهد التجـــار فى السوق عمارا يعاود فتح متجره وبدا بحاربه من جديد

هنا عن مكة

بدأ فرض الارخوان رحلته الدائمة نحو المغيب ، يجرجر من ورائه سحائب صوء النهار الغائظ ، واخذت طلمة الغروب الرمادية ترحف حثيثا من خلف الافق ، فدب الدور واسحار الخيل الناسمة ومآذن الحرم كانها أذرع تسهل الى رب السماء والكعبة أن تظل الخلق بعمائه ، فهو المحمود على سرائه وضرائه

وانطلق صوت عبد عمس يؤذن لصلاة المغرب ، فهرع السائرون فى الشوارع واصحاب الدور والمناخر الى المسجد الحرام الذى تجمعت فى ساحته اسراب الحمام الابيض تطير هنا وتحط هناك وقد يطيب له ان يستكين على اكتاف المصلين تارة وعلى ظهور الساجدين تارة اخرى

ولما ان فرغ « عبد الرحمن بن ابى حسين » من صلاته غادر المسجد قاصدا الى داره ، بينما ظلمة المساء تخيم رويدا على بطاح مكة وعلى الدور والشوارع والكاسات

اختار « عبد الرحمن » فناء داره الواسعة واتجه من فوره الى القاعة الكبيرة واخذ ينادى على خادمه « عبيد » من داخل الدار لينالا الصادق بالرد ثم يوقدها فعما قليل ستشتعل وجناء القوم والأصدقاء والمحبون يتبعونه بعدوه اول مولود ذكر يرزقه به الله بعد طول انتظار وترقب

ولكم تمنى عبد الرحمن لو ان الله من عليه بهذا العلام منذ بضع سنوات خلت ، وقد ان كان المال يسيل من بين يديه كالمطر الوابل ويخسارته بدر ماله بعد موسم كل حج اضعاف ماكان يصبو ويامل

لكن المقادير ساءت ، والله من ورائهـا ، أن يجيء مولود عبد الرحمن وهو فى عسر من الحال ، وضيق فيما يملك من المال ، وان بدا للناس انه لم يزل بدى الكف سخيا للعفو والعوث

نعم لقد اصاب العسر « عبد الرحمن » بعد أن اغرض شريك بحاربه وصديق طفولته « سرا » أكثر من نصف ماله يوم سافر الى الشـــام ليجمع من ضياعتها مثلما يجمع فى كل عام ، ثم طلعت على القافلة جماعة من الشطار وقطاع الطريق ، فسلب سرا ومن معه من الرجال ، واغتصبت الزاد والمال

لم يكن مستغربا فى ملك الآونة من حكم « عبد الملك بن مروان » ان يعيث اللصوص على قوافل التجـارة وعلى غيرها ، فقـد كانت فترة تموج بالاضطراب وتضطخ بالفتن الهوجاء التى يثيرها الخوارج والطالبيون من جهة ، وسيعة عبد الله بن الزبير فى أرض الحجاز من جهة اخرى

ولم يحزن عبد الرحمن على فقد ماله ، بقدر ما اشتق قلبه جزعا على موت « سر » وتثلم أسائه وترمل زوجته ، بعد ان كان يملأ الدنيا عليهم وعلى أحبائه حبورا وجودا وحلو لسان

أفاق « عبد الرحمن » من سرحته على رائحـة الطيب والصندل التى أطلقتها المجامر من رواق القاعة الكبيرة ، فغادر مكانه الى خارج الدار ليكون فى استقبال ضيوفه الذين تداعوا فى الوفود ، هاشا فى وجوههم ومرحبا بهم فى حفاوة واشراق

وفى داخل الدار ، احتدت « هنـد » زوجة عبد الرحمن نـادى على « عبيد » الذى ما انفك يروح ويغدو حاملا قصعات الطعام الى الرجال فى القاعة الكبيرة ، او يسكب ماء الورد فى آنية الشرب ، ولما أن وقف بين يديها تأدب قائلا كم يبلغ عدد الصيوف من الرجال يا عبد ؟ قال تريدين عن المائة يا سيدتى قالت هند ماجودة ويحك ! ألا تعلم سيدك انه لم يعـد لدينا كسرة خبز ؟ والسوق كم هى شاسعة ؟ قال عبيد يبلغ نصف عدد الرجال

يا سيدى فالت هند ويحى لم يبق عندى الا ملء حفنتين اسمع ياعبيد اذهب من فورك الى دار اختى عاتكة واسألها كل ما لديها من طعام ثم نصحه هيا وعجل ياسقى

لم تتحرك « عبيد » من مكانه واحد تحدق فى الأرض بعد ان حز فى قلبه حلو الدار من الطعام فى تلك الليلة التى أقبل فيها الناس يهنئون سيده ويباركون له ، فلم يلبث أن رفع عينيه الى وجه سيدته ، فلمح فيهما دموعا توسك أن تسكب فقال يأبى انت وامى يا خير زوجة حفنتى سليك بعض الغرم والكلفة ، فوالله لأطعمن نساءك حتى لايبدرن ما وضع لهن وما أصابوا من طعامك

وانطلقت « عبد » من أمامها وانزوى فى ركن من صحن الدار ، وأخذ يقرر على دف له ، ثم اندفع يغنى بصوت هو أعذب من رنين الفضة واوقع من بلابل الروض أغانا لشاعر الغزل « عمر بن أبى ربيعة » الذى طارت شهرته من أرض الحجاز الى كل بقعة ينطق فيها لسان عربى

نظرت اليهـــا بالمحصب من منى
ولى نظـر لولا التحـرج عـــارم

فقلت أمـــس أم مصـــابيح بيعة
بدت لك جنح السحب ام أب حالم

بعيـــده مهون القرط أما لـــوهل
أنوها واما عبد شـــمس وهاشـــم

ومد عليهـــا السحب يوم لقيتهـــا
عـــلى عجل منـــاعها والحـــوادم

فلم أستطعها غير ان قد بدت لـــــا
على الرغم منهـــا كفها والمعـــاصم

معاصم لم تصرف على النهم بالصحى
عصـــاها ووجه لم تلحـــه السمائم

تصـــير ترى فيـــه أســـاريع مـــائه
صـــيح تعـــادته الأكف الدواعم

اذا ما دعـــت أمرائهـــا فاكتنعهـــا
تســـائل او مال بين المـــآكم

تلبس الصـــبا حتى اذا ما اصـــبه
ترعى وهن المسلمـــات الطوالم

وبذل الرجال والنساء السماط والطعام وما كانوا فيه من سائق السمر والمعاكهة ، وانصرفوا تلوبهم الى الصوب العذب والانساد الرائق ، وطفقوا يستعيدون العشاء حتى لاحت خيوط الفجر فى الأفق ، فانصرفوا الى دورهم وهم سكارى نشوة ما طربوا فى تلك الليلة العزيزة

انهى عبد الرحمن مـــد تلك الليلة ان علامه « عبيد بن سريج » تملك موهبه خارقه فى الصوت وحسن الأداء والانشاد ، ولم تكن تعرف من قبل الا أنه كان يغنى باكيا على الأموات والقتلى ودموع الثاكلات

فى تلك الليلة ، وبعد أن انصرف ضيوفه ، اعتزم عبد الرحمن أمرا فى شأن خادمه الموهوب اعتزم ان يخلى سبيله ، ويعفيه من خدمتـــه ، وأن يسرحه باحسان بعد أن يعتقه ، تقربا الى صاحب الجود والعطـــاء وواهب الورى لمن شاء

وقبل أن تغيب شمس اليوم الجـــديد ، تهيأ « عبيد » لمغـــادرة دار عبد الرحمن ، ووقف بين يديه يستمع الى نصحه ووصيته له أن يلجـــأ الى أئمة العشاء فى مكه وفى المدينه ، ليأخذ عنهم اصوله وفروعه وقواعده ، وان يكرم موهبته التى أودعها الله فى صوته ، وأن يصونها من كل عبث وهوان

وانكب عبيد على رداء سيده يقبله ويسح يديه لهما ويقبلهما بدموع حرى على عشرة طويلة سواء طويلة في دار سيده لم تكن يخص الا انه واحد من أهل الدار ، حمل نصيبه من سراء العيش وضرائه مثلما حملوا سواء بسواء

ثم أقبلت « هند » على صوب الحبيب ، ورأت « عبيدا » يجمع حوائجه ويعد حماره للرحيل ، فترقرقت في عينيها دمعتان ساخنتان ، كانتا تريان السنين التي قضاها بينهم بسيح الضحكات ويسر الدعابات ويبدل روحه طواعية وبرا بهم ووفاء بوفاء

وقام عبد الرحمن يودع علامه الى خارج الدار ، ثم أعطاه كتابا الى اخيه « عطاء » ليدبر له مسكنا ومقاما في احدى دوره العديدة بسفاف مكة ، ولم ينس أن يدس في يده كيسا أودعه كل ما يملك من مال قليل

ثم نام « عبيد » و بعقل في تلك الليلة الفاصلة من حياته ظل ساهر الطرف يقلب وجوه الرأي في أمامه المقبلة بعد أن أعتقه سيده ووهب له حريته والتصرف في شأن نفسه بما يهوى لقد احس انه ولد من جديد ، وانه يحيا حياة جديدة يملكها حقا ولا يملكها غيره وحدثته نفسه وحدثها انه اليوم قد سارف على الخامسة والعشرين من عمره ، ولا يحسن عملا غير ترديد السمر بصوت يطرب له الاسماع والقلوب ، لكن صنعة الغناء لا تسعل بها الا اهون الناس سادا وهم الموالي والأرقاء والعبيد ، وهو بعد ، لم يعد واحدا من طوائفهم منذ اعتقه عبد الرحمن

ثم علته النوم مع أولى خيوط الشمس التي تسللت الى صحن الدار فقام في الضحى فصام واغتسل وارتدى أحسن ثيابه ، وغادر داره قاصدا الى دار « سعيد بن مسجح » سيح المغنى في مكة الذي انقطع الى تعليم الغناء ، بعد ان وهن عظمه وافعده السيحوحة

ومد اللحظة الأولى التى أصاخت فيها اذن « ابن مسجح » لغناء الفتى الباسىء ولأدائه المصقول ، أدرك أنه يملك موهبة نادرة قل أن تجود بمثلها القدر

اقبل سيح الغناء فى مكة على « عبد بن سريج » يضبط له الأوزان ، ويحدد توقيع كل صوت ، ويسقيه من عصاره تجربته العريضة فى ألوان الغناء العربى والفارسى وصوف التطريب ، حتى جاء وقت عدا فيه « ابن مسجح » لايطيق أن يبتعد عنه بقيده الحديد لحظة ما بالليل او بالنهار ، بعد ان أحس أنه يوشك أن يفارق الدنيا ، وان لابد لغنه أن ينمى ويمتد فى غناء « ابن سريج » و « معبد » و « العريض » وهم صفوة من أخذوا عنه وترددوا عليه

ويوم ان دخل « ابن سريج » على مسجح ذات ليلة يحمل بين أضلعه « عودا » مما تتغنى على أنغامه الاعاجم الوافدون فى موسم الحج ، ترقب عيناه فى دهشة تسرح فيها الفرح وهو يشهد طموح تلميذه يمتد يوما بعد يوم

لم يكن « ابن مسجح » فى الحقيقة يعرف الضرب بالعود ، لكنه رأى ابن سريج أن يتعلم الضرب على أوتاره حتى يحذق العزف عليه من تلقاء نفسه دون مرشد سوى أذنه الواعية وسمع أستاذه الكبير

وانصبت عناية اعوام على «عبيد بن سريج» ، وهو فى صحبة « ابن مسجح » يلقى خلالها أصول الصنعة الحلوة ، وينهل من عذب مواردها الرائق ، ووقف على مفاتيح الغناء وطرائقه ، حتى بلغ ما حذقه وأتقنه نهاية وستين صوتا واسلوبا

وماب « سعيد بن مسجح » سمح الغنا فى مكة ، فكاد « عبد بن سريج » بالدموع السفاح ، واخذ يوح عليه حتى ابكى الناس معه

هولون ما ابكاك والمال عامر عليك وصاحى الخلد ملك كبير
فقلت لهم لا تسألونى واتركوا الى الطير الراع كيف تكون

انقطع « ابن سريج » في داره أياما حزينة لا يرمه خلالها طيف استئذانه الراحل في كل صوب أو نعم ، ولم يجد من وسيلة يوفق بها حبل الولاء له ، سوى أن يعكف على عوده وأوتاره ليردد ما يعلمه على يديه مرة بلو مرة ، ثم يحس بوقوف الناس على باب داره يراجعون بالمماكة ليسمعوا الروح والقلب والاسماع ، فيقوم « ابن سريج » الى فراشه لعل الكرى يسلمه الى الرقاد فيهجع قلبه الحزين النائح

وجاء أمير شعراء الغزل « عمر بن أبي ربيعة » لما بلغه لزومه البيت ، وطلب اليه ان يخرج الى الناس ليدخل احزانه في نفوسهم ويسمرهم فما من شيء أحفظ لجميل « ابن مسجح » سوى استماع الناس الى غنائه بعد ان حملت الرياح عذوبة صوته وحسن أدائه الى كل بقعة في الحجاز ، وجاوزتها الى بلاد الشام ومصر والعراق

وصحبه « ابن أبي ربيعة » معه لأداء فريضة الحج مع حشمه وغلمانه ومواليه ، وقد اردفوا أحسن لباس وزينة ، فوصلوا الى « منى » في صفار الشمس ، واحب عمر ان يتلهى في غسقه ، فاشار له ابن سريج على كثيب قريب يمرون منه مرور الحاج ولا يرونهم ، حتى اذا أكلوا وشربوا ، امسك ابن سريج بدفه وأخذ يمر عليه فمل ان يطلق صوته بالغناء ، ولم يلبث ان سأل عمر ماذا يحب ان اغني من شعرك يا سيدي ؟ قال عمر وهو يتمايل طربا على نقر الدف غنى ما قلته في كلثوم

اعتدل ابن سريج في جلسته ، وتهيأ للغناء ، وأخذت أصابعه الحاذقة تعمر الدف حتى كاد أن ينطق ويندفع يغني

كفى حزنا أن يجمع الدار سملنا ... رامسي قرننا لا أزورك كلما
دعى الشوق دوني صاله مع الذي ... به فيك أو داوى جواه المكتم
ومن كان لا يعذر هواه لشانه ... فقد حل من قلبي هواك وحيثما
وليس يروي اللسان وضوعه ... ولكنه قد خالط اللحم والدما

حمل الهواء غناء ابن سريج الى كل واقف وسائر ومقيم ، فاندفعوا الى اقرب موضع من الغناء السحي ، كما سمعته فواقل الحجيج من معقدة ومغربة ، فمال الرحال رواحلهم وساروا الى مصدر الصوت كأن مسا من الحق قد اصابهم ، وجعل تركب بعضهم بعضا من سموه ما طربوا ، حتى انتهت سعاة الحمل الى ما نسبه الحفل الصاحب

واقبل رجل مهيب الهيئة من بعد بصيح وسبعد به من السيطان حتى وقف على اعلى موقع من الكثيب ، وادرك أن المعنى هو ابن سريج الذي قيل الناس فقال يا ابن سريج ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء قد قطعت والله على الحاج وحشتهم ،والوقف قد صاق فابن الله وقم عنهم

واستحى ابن سريج من الرجل وسكت عن الغناء حتى استأنف الحاج مسيرهم ، فقام من مجلس ابن ابي ربيعه ، وعاد الى داره مسدوها من تكاثر الناس عليه ، موهما انه طلع سأوا بعيدا في الغرب والطريب

مضت تلك الليلة ، داع صيت « ابن سريج » وجاوزت شهرته شهره « معبد » و « العريض » وأصبحا ولما انقضى موسم الحج ، اقبل الناس عليه من المدينة والطائف ونجد يستمعون الى غنائه ويعقدون حلقات الدراسة والمفاضله بينه وبين معاصريه من أئمة الغناء ، ولكل منهم عشاق ومريدون

واحدث دعوانه للغناء يقاطر عليه ، فيوما هو في المدينة ، ويوما في الطائف ، ويوما بين الرحال الى عاصمة الخلافه في دمشق ، ليبني في قصورها انتهاجا بهدوم امر او رواح وزير

ودخل بيوت سادات مكة ، كما افترش رمال البادية بين عصارب الأعراب ، وغنى للرحال والنساء أرق اشعار «ابن ابي ربيعة» و «الأحوص» و « جرير » وقيس بن ذريح ، وكان غناؤه لأي شاعر من معاصريه ، شبيها

لأن نظر شهره الساعر ويحاور ارض الحجاز الى العراق ومصر وبلاد الشام وكل بقعه ينطق فيها لسان عربي

واحب « الوليد بن عبد الملك » خليفة المسلمين ان يسمع صوت جواريه « حبابة » معنية بعد ان لمس في صوتها عذوبة طرب مبكر ، فبعث بها الى ابن سريج في مكة ليأخذ عنه الغناء ، فامضت في صحبته أربعة اعوام عدت بعدها من ابرع مغنيات عصرها واحذقهن نظرنا

وذهب معها ابن سريج الى دمشق ليقدمها الى امير المؤمنين معنية بالنتيجة القدم ، سليمة الأداء جميلة الصوت ، حسنة التهذيب

كانت ليلة مشهودة في تاريخ دمشق ، يوم ان غنت « حبابة » بين يدي الوليد ، ثم اعقبتها « سلامة » ثم ابن سريج من بعدهما حتى لاح نور الفجر

جلس الخليفة في صدر المكان ومن حوله خدمه وغلمانه يحملون صحاف الفاكهة واطباق اللوز والفستق ، بينما اضواء المشاعل تعكس بريقها على الستر والطنافس والنقوش فتبدو المطر بسع بهاء ورواء

تقدم ابن سريج الى حيث تكيء الخليفة على جنبة طرفها اسفل الذهب والفضة ، فالتمس منه ان يأذن له بعض الغناء قبل ان تبدأ «حبابة» التي تهيأت للموقف وروعته ، وكان الوليد في حقيقة الأمر يتمنى ان يستمع الى غناء من تحدث الركبان بأنغام صنعته ، فلم يلبث ان ابتسم ثم قال

— لا عليك يا ابن سريج فسوف تسمع منك ثم تسمع حبابة

وتراجع ابن سريج الى مجلسه الاول واشار الى جاريته ان تتمهل بعودها لتصاحبه في العزف درن ان يعني ، بينما اختص عوده بعض نغماته ثم اصلحها وجاراه بعمل مثلما بعمل حتى تساوت طبقات الأوتار في العودين ثم بدأ الغناء فسأل من عودي المغني الراسخ ويتبعه الملتحة وطلا

يعرفان معا دون عناء حتى اوسكت جدران قصر الخليفة ان تتمايل بدورها طربا ، واندفع ابن سريج يغني من شعر « ابي صخر الهذلي »

أما والذي ابكى واضحك والذي ... أماب وأحيى والذي أمره الأمر
لقد تركتني احسد الوحش ان ارى ... اليفين منها لا يروعهما الدعر
فما هجر ليلى قد بلغت بي المدى ... وردت على ما لم تكن بلغ الهجر
وما حبها ردي حشوي كل ليلة ... وما سلوه الأيام موعدك الحشر
هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى ... ورزتك حتى قلت ليس له صبر
عجبت لسعي الدهر بيني وبينها ... فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
اذا لم تكن بين الخليلين ردة ... فما يذكر بيء قديمي درس الذكر
واني لعبروني لذكراك هزة ... كما انتفض العصفور بلله القطر
هل الوجد الا ان قلبي لوعة ... من الحب قد الرمح لا خرق الخمر

ولما فرغ ابن سريج من غنائه ، زايل الوقار جميع من في المجلس ، فكاثروا حوله يطلبون المزيد من الغناء الباهر ، بينما الخليفة يلحظ الحال في حبور بعد ان بلغ الطرب بالنفوس مداه ، وظل ابن سريج صامتا حتى اشار الوليد الى حبابة ان تغني ثم قال قد احدث والله يا ابن سريج وصدق حدس الناس عنك

ثم قام « حبابة » وتقدمت الى حيث يجلس الوليد ، وانحنت بين يديه بلثم رداءه ثم قالت ادام الله عز أمير المؤمنين وحمل بالسعد ايامه ، ما اطيب ابلغ ساعو امير الغناء في مكنة فلتأذن مولاي بالانشاد ان شاء ، لعلي أصادف بعض ما صادف ابن سريج

ابتسم الوليد في وجه جاريته مستحثا ثم قال سنسمع يا حبابة غناءك ثم نقول فيه رأينا

وجلست حمامة الى جانب ابن سريج وحركت أوتار عودها واحدثت نغمها في نغم وليس اول الأمر ، ثم جرت أصابعها على الأوتار بعد ذلك في سبق يدع اهرب له قلوب الحاضرين قبل اسماعهم ، وانبعث نغمي أبيات « الهذلي » بلحن آخر لا نقل في روعته عن لحن أستاذها الراسخ ، فاذا بالجليسة تترك جلسته وتزحف الى اقرب مكان من جارته كأنما يبغي ان تأكل الغناء بدلا من سماعه

وأعاد الوليد ستعيد غناء « حمامة » مرة بعد مرة حتى ارتوى القوم من عذب ما سمعوا ، ثم جاءت « سلامة » من داخل القصر لتشارك بدورها في هذه الليلة البهيجة

وانقست ساعات الليل في طرب موصول حتى أوشك الفجر ان يطلع ، فقام الخليفة ، وانفض عقد المجلس السعيد وما زال النغم الحلو يسري في جوانب القصر

وعاد ابن سريج الى مكة وفي رحلته عطاء الخليفة من كساء وراد ومال يكفيه بقية العمر

وعكف في مكة ما بقي من عمره يرطب أجواءها ومحافلها ومجالسها بأعذب ما سمعته اذن ، وانتقل غناؤه واسلوبه الى كل دار ومكان ، واخذ عنه كبار المغنين قبل صغارهم ، حتى رسخت قواعد مدرسته في الغناء المكي الذي ساد على كل ما دونه من غناء

ويوم حضرته الوفاة في خلافة « يزيد بن عبد الملك » دخلت عليه امته « حمداء » والدمع مترقرق في عينيها ، وحين نظر اليها بكى لبكائها ثم قال ان من اكبر همي انك يا حمداء ، واحسبني ان نصنعي من بعدي

قال حيداء لا ترع يا أبي ولا تحف فما عيب سيبا الا وانا أعيبه
قال ابن سريج وطفق ابتسامة حلوة ترف على شفتيه هات بعض ما تعيبه
واندفعت ابنة الفنان المحتضر تغني صوتا وراء صوت وهو مصغ اليها ثم قال الحمد لله قد اصبت ما في نفسي وهونت على أمرك اسمعني شعرا للهذلي يا حيداء

اختار « حيداء » بيتا أول بيت مما كان ابوها يعيبه لنفسه ، وقبل أن تأخذها غمغمة الغناء ، لاحت منها التفاتة الى وجه ابنها الباسم فرأته يجود بآخر نفس ولحن

"زاهد وخليفة...."

اقل نحم بنى اميه واطلعت سماء خلافتهم بمثل « مروان بن محمد » الخليفه الاموى الثالث عشر والأخير على ارتاض مصر فى عام ١٣٢ للهجرة، انتصب بذلك امام خلافتهم التى دامت قرابة قرن من الزمان

ومهما قيل من خير او سوء فى خلافه بنى امية ، ومامارلته أحاديث الرواة وأقلام المؤرخين ، فقد كانت خلافه عربية اصيلة المضمون والهدف وكاد ان تكون مذهبها السياسى العرب للعرب والعرب

ولقد عاصرت المتاعب طرفى بنى اميه وورعت على حاشيه الأســواك والمحن منذ أول خلفائهم ، معاوية بن ابى سفيان ، حتى لفظت هذه الخلافة آخر أنفاسها بمقتل مروان بن محمد

نعم فمنذ اليوم الأول لخلافة معاوية ، اكتسف الأحقاد والضغائن نفوس الطالبين ومن ورائهم الشيعةوالخوارج ، ورأى معاوية نفسه مدفوعا لمصارعه اكثر من مثر فى اكثر من جبهة وميدان ، واحس المسلمون انهم يوشكون ان سرقوا سيفا واحدا تتطاحن على الملك وساطح على السلطان، رارا انفسهم على مفترق طرق كثيرة تسلمون الى هذا الفريق حينا ، أو تسعون ذلك الحزب حينا آخر ، حتى وشك ان تصير الدين والحفاظ عليه امرا يهون الى جانب انحصوة بالملك والاستئثار بالسلطان

ولولا ان « معاوية » كان يملك رصيدا ضخما من الحلم والدكاء والأناة ، ولولا انه كان يملك طول باع وحسن سياسة ، لما قدر لبنى أمية ان يطول ادامهم حتى فارت مائة عام اسبغ على مدارها فتوحات المسلمين.

فانفسحت في المشرق حتى حاورت خراسان وبلاد السند وبلغت مشارف الصين ، وامتدت في الغرب حتى لامست شطآن أسبانيا

على ان مكمن الخطر الذي لم يغفل اليه بنو اميه ولم يحسبوا له حسابا أو يلقوا اليه اساها ، انما كان مجموعا في لفائف تلك الدعوة الجديدة التي نشأت في بيت بني العباس ، فان تولي امرأة رمام خلافه المسلمين بعد ان تقوض حكم بني اميه الذي بدا الفساد يدب في بنائه منذ مات « عمر ابن عبد العزيز » وتولى الخلافه من بعده ، يزيد بن عبد الملك عام ١٠١ للهجـره

ولقد كان طبيعيا ان ينحرف حكم بني أمية منذ اللحظة الأولى التي اسلموا انفسهم فيها لسلطان الشهوات ومغاني الدنيا وزينتها ، ومنذ اتخذوا لمساكنهم الدور الباهرة والقصور الفاخره ، ومنذ غرلوا انفسهم عن جماهير المسلمين خلف جدران كسبت نصحائف القصه ورقائق الذهب ، ومنذ استعملوا الحجاب يقفون بأبوابهم يأذنون لهذا بالمرور ويمنعون ذلك المرء من الدخول

وكان طبيعيا كذلك ان يترعرع سلطان الدين ويتحفزوه في نفوس المسلمين وهم يشهدون خلفاءهم يبتعدون شيئا فشيئا عن خاصة للخلافة بدلا عن مكة والمدينة مع مالهما في قلوب المسلمين من قداسه لا تغير او تهون

وعلى كر الأعوام ، تتراخى حرص كثير من الخلفـاء على دينهم مما يتراخى الحبل المشدود من الطاعة والمعصية ، فلا يلبث العيون ان يرين فيما يسمعه المسلمون ويشهدونه من سـلوك الامـويين الذين استبدلوا في مجالسهم ، الغناء والخوارى والعلمان ، بالعلماء والفقهاء وذوي الفضـل واتخذوا منهم سمارا وندماء لهم في مراحهم ومرواحهم ، ومن ثم اصـبح المسلمون وامسوا يرقبون بروغ فجر جديد

وحمل الرياح من خراسان دعوه بني العباس وبيعة « ابي العباس عبد الله » خليفة للمسلمين ، الى العراق ومصر والشام ، ودخل الى الكوفة

أبو العباس اول خلفة عباسي في الثالث عشر من شهر ربيع الاول لعام ١٣٢ للهجرة ، واتجه الى المسجد فصلى بالناس ، ثم خطب فيهم بعد ان حمد الله واثنى عليه ، وافتخر بقرابته لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، ثم ذكر الخلفاء الراشدين واثنى عليهم ، ونعى على بني حرب وبني مروان اثرتهم وظلمهم وقال

« واني لأرجو الا تابيكم الجور من حيث اتاكم الجور ، ولا الفساد من حيث جاءكم الصلاح ، وما توفيقنا اهل البيت الا بالله يا أهل الكوفة انتم محل محبتنا ومنزل مودتنا ، انتم الذين لم تتعذروا عن ذلك ولم يمنكم تحامل اهل الجور عليكم حتى ادركتم رمسنا ، وأتاكم الله بدولتنا فأنتم اسعد الناس بنا واكرمهم علينا ، وقد رددتكم في اعطياتكم مائة درهم ، فأنا السفاح المبيح والثائر المتيح »

اصبح « السفاح » خليفة بالفعل على الأمويين ومطاردتهم اينما رحلوا او اقاموا ، واعمل السيوف في رقابهم ، وصادر أموالهم دون محاكمة او مساءلة ، ولم تكن مداد صفحات حكمه الا من دماء بني امية ركل من تتشبع لهم أو تجري بذكرهم لسانه كانت سهوة الانتقام من بني امية عارمه وملهمة طوال خلافة السفاح ، واعانه على تقلب حمرها كلما خمدت، عماه « عبد الله بن علي » و « داود بن علي » ثم مات بالانبار في شهر ذي الحجة لعام ١٣٦ للهجرة .

وبويع بالخلافة لأخي السفاح « ابي جعفر عبد الله » ولم يعد خاليا من خوف على خلافة العباسيين بعد ان بادت دولة الامويين ، ولم يدق منهم بقية تحصى لها باس او تدخر لها حساب .

اصبح « ابو جعفر المنصور » وامسى دانت يوم لبعد نفسه خليفة للمسلمين وامسا على ملك عريض وبنى بصرف سهامه في اغلب اقاليم الأرض وجاءته بعوث قسطنطين الخامس ملك الروم وشارلمان ملك فرنسا

يحطون وده ، وتتبادلون الهدايا والمواسى ليرعى كل ملك حقوق جواره ويفتح بلاده ليعيش الناس هنا أو هناك في وئام وسلام

والحق ان « ابا جعفر عبد الله — المنصور » بعد مفجرة في حس الدولة العباسية ، وهو المؤسس الحقيقي لهذه الدوله العظيمة ، اقام لهـا شامخ البنيان على ركائز رصينة من احلافيات الاسلام وتعاليم دينه وثقافته العميقة ، كما كان يحلف في سائه المكر الى حلقات الفقهاء والمحدثين ، ويعترف من ينابيع فضلهم وعلمهم ، وهو حينما صار خليفة للمسلمين ،ارتكز في سياسته على ما وعاه فلسـه وما أسرت به روحه من حسية الله فيما سر أو يعلن .

كما رأى أن يكف عن قتال بني أمية بعد أن كفاه ابو العباس طوال سنوات خلافته الأربع مؤونة القضاء على شوكتهم ، فأصبح لاهم سـعل « المنصور » منذ تولى الخلافه ، الا بست دعائمها واعلاء منارتها والحفاظ على ملكها ، ولو دفعه ذلك الى ان سـتعين بغير العرب الخلـص ، على تقيض ما حرص عليه بنو أميه من انصار العرب

وبنى المنصور مدينه « بغداد » لتكون حاضرة الخلافه العباسـية ، ولتغدو من بعد ذلك كعبة القصاد من ممالك الشرق والغرب ، وانفق على تشييدها نهاية عشر الف الف دينار ، ثم حشد اليها العلماء والفقهاء من كل بلد واقليم ، فأمها الناس افواجا ، فلم تزل تتعاظم وترداد عمـرانها حتى غدت عروس الدنيا وسيدة البلاد ومهد الحضاره الاسلاميه ، وارتوى فطانها على مليون من الأنفس تتعاطون شتون التجاره والعلـم والسفيه وكل ما تتصل بالحياه التي اتضحت عليها اسباب الرغد والأمان والانس الرخي

وهدأت انفاس المنصور بعد ان قرع من بناء بغداد ، ونظام وؤاده بعد ان خلص ممن كان يخشى بأسهم من المقربين اليه ، وكان على قائمتهم عمه « عبد الله بن علي » و « ابو مسلم الخراساني » صاحب دعوة العباسيين في خراسـان

ثم صفا الجو لأبي جعفر المنصور ، واتسعت من سماء خلافته غيوم كثيرة ، واذا ما خلف حواليه وجد ملك المسلمين قد انبسحت رقعته وامتدت سطوته ، واذا بحضارة الاسلام تغزو الممالك والأمصار قبل ان تغزوها الجيوش ..

كان سعله في صدر النهار أن يجلس في ايوانه يستطلع أخبار الولايات ويدارس اصحابه وخلصاءه فيمن يوليه هذا الثغر او من يعزله عن تلك الولاية ، ثم ينظر في امر السبل وطرق القوافل والتجاره ويسوس الخراج والنفقات ومصلحة معاش المسلمين ، حتى اذا انقضى النهار جلس الى اهل بيته يلاعب الصغير ويداعب الكبير ويقضي حوائجهم في غير اسراف .

وفي الليل بعد ان يصلي العشاء الآخرة ، يجلس الى سماره من ذوي الفضل والعلم يشاورهم وينظر فيما ورد عليه من كتب الثغور والأطراف والآفاق ، فاذا مضى ثلث الليل قام الى فراشه وانصرف سماره ، فاذا مضى الثلث الثاني من الليل ، نهض من نومه فأسبغ وضوءه وصف محرابه حتى يطلع الفجر ، ثم يخرج فيصلي بالناس

وينقضي الأيام والأعوام بالمنصور وهو يعمل لدنياه كأنه يعيش ابدا ، ولآخرته كأنه يموت غدا ، فيملأ خزائن الدولة بالأموال ، ويؤمن عيش المسلمين ، ويشيد المدن والقصور والمساجد ودور العلم ، ويجعل من بغداد حاضرة العباسيين كعبة اخرى تجبى اليها الوفود من أطراف الدنيا وآفاق الأرض لتقتبس من رغد الحياة اوفره ، ولنهل من علوم الاسلام وأحلافياته وحضارته ، ثم يدفنه بعد ذلك على العالمين

ولا ينسى المنصور آخرته ، فيحج ما استطاع سبيلا في كل عام الى حج بيت الله

حتى كان ذلك الموسم من الحج للعام الثامن والأربعين بعد المائة للهجرة ..

يجهز المنصور للسفر الى مكه يصحبه اهل بيته بعد ان وكل الى ولده وولى عهـد الخلافه « محمد المهدى » ان يرعى الامور فى غيبـه بالحق والموعظة الحسنه

وحط قافله الخليفه على بطحاء مكه بعد سفر شاق من بغداد الى أرض الحجاز ، ثم ضرب الفساطيط فى نظام وفور وشكل مهيب ، وبسر فسطاط الخليفه بصحابه وعلو رايه الخلافه فوق هامته

ومنذ اللحظه الأولى لوصول قافله المنصور ، اقبل وفـود العـلماء والفقهاء والشعراء من مكه والمدينه يسلم على خليفة المسلمين ويمضى فى مجلسه اوقاتا طيبة يتبادلون امور الدين والدنيا ، ويتضرعون الى الله ان يهدى الناس الى الخير ، وان يعينهم على البر وصالح الأعمال

وسأل المنصور ذات مساء عن « ابى حنيفة النعمان » الذى اعتمده منذ وصولهم ، فأجاب الربيع الحاجب انه منذ جاء معنا الى مكة وهو لا يغادر الحرم ، وان شاء امير المؤمنين يمكنه فى طلبه فقال المنصور بل ندعوه لشأنه ، فما جاءنا اليوم وقد حسن سعيه جمعنا رضا الله ومغفرته .

وامتد السماط لعشاء المنصور وحاشيه وصحبه ، وقبل ان يمتد الى الطعام الذى لا يؤكل ، دخل الربيع يعلن وقوف ابى حنيفـه بالباب ، فأذن الخليفة بدخوله على الفور .

ولم يلبث ابو حنيفة من طعام المنصور سوى ، وانتحى مجلسا قريبا منه يتسم بالأدب ويدلو من كتاب الله آيات بينات .

ولما فرغ المنصور من طعامه ، اقبل على ابى حنيفة يسأله عن حـال المسلمين فى مكه ثم يدور حديث شائق بين الجالسين ويسـتمع المنصور فى شغف الى احاديث العلماء فى مجلسه ، ويتوجه ابو حنيفة الى المنصور يسأله عن تتمة حديثه الذى بدأه فى بغداد ليلة السفر ، عن أركان الملك

لي لا نصح الا بها ، فبسم المنصور وقال جزى الله ابا حنيفه خيرا ان اثار هذه القضية ، فما احوجني وانا امس على هذا الملك العريض الى ان تكون على باب اربعة نفر لا تكون على باب أعف منهم قال ابو حنيفة ومن هم هؤلاء الأربعه يا امير المؤمنين ؟

سكت المنصور لحظه بلاقب خلالها انظار من في المجلس على صفحة وجهه ثم قال هؤلاء الأربعة هم اركان الملك ولا يصلح الا بهم كما ان السرير لا يصلح الا باربعةقوائم ، اذا نقص واحده تداعى السريرثم تهاوى أما احد الأربعه فقاضي لا يخاف في الله لومه لائم ، والثاني صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي ، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم ارعية فاني عن ظلمها غني ، اما الرابع

وهنا سكت المنصور برهة ثم نص على اصبعه بلاقب مرات وقال آه من هذا الرابع .

قال ابو حنيفه من هو هذا الرابع يا امير المؤمنين ؟ قال المنصور وهو يتفرس في وجه محدثه الرابع صاحب بريد تكتب عن هؤلاء على صحة .

وانفض مجلس المنصور في تلك الليلة ، واراد ابو حنيفة ان ينصرف الى منزله ، فاشار اليه الخليفة ان يبقى معه لنصحه في الطواف حـــول لكعبه

ولما ان سارفا ساحة المســجد الحرام ، فرهما المسجد الفريد لآلاف المتسارعين والساجدين والطائفين بالكعبة ، بينما القناديل من حـــولهم تكاد تجعل الليل نهارا

وسمعا دعاء الحجيج الى رب الكعبه والناس ان يحفظ لهم دينا احرجهم من الظلمات الى النور ، وهو بعد ، خير دين انزل للناس

رأى المنصور الناس من كل بلد ولون وجنس بلا فرق بينهم في هذا الماء المهين حب لا يتقدم غني على فقير ولا قوي على ضعيف ، وانماالكل

سواسه يذكرون الله بقلوب خاشعة ، ويرفعون الى عليائه أكف الضراعة ان يصل بوتهم ، وأن يقبل عزيمهم ، وأن يهديهم الى صراط مستقيم

وبينما المنصور وأبو حنيفة يطوفان بالكعبة ، راى المنصور رجلا فى ركن قريب يتطلع الى السماء ولم يلبث أن سمعه يقول فى ضراعه « اللهم انى أشكو اليك ظهور البغى والفساد فى الأرض ، وما يحول بين الحق واهله من الطمع »

خرج المنصور من دعاء الرجل ، فلم يكمل طوافه ، وخرج فجلس فى ناحية من المسجد مهموما ، ولما أفضل الربيع حاجبه ، طلب اليه ان يذهب الى صاحب الدعاء ويدعوه الى حلقه المسلمين ، ثم أشار الى أبى حنيفه ان يجلس قريبا منه ليسمع معه جديد صاحب الدعاء .

امتثل الربيع لأمر الخليفه ، وذهب الى حيث يجلس الرجل واشاره قائلا سمعك امير المؤمنين يشكو الى الله ظهور البغى والفساد فى الأرض، وقد اراد اجابه الله ، ان يراك وان يسمع منك . قال الرجل فى هدوء رصين قد كنت أشكو الى الله وليس الى امير المؤمنين اذهب عنى اصلحك الله

ادرك الربيع ان الرجل واحد من الزهاد ، وان الجدل معه لا طائل من ورائه فلم ير الا ان يشره ويسفره فقال أراك تخاطب الله ولا يحتجب لقاءه، فحرى بك الا تهاب لقاء عبد من عباده الصالحين هنا وقم معى الى لقاء أمير المؤمنين فلقاؤه خطوه للسعداء

وهنا طلب الرجل الزاهد من صاحب الخليفه ان يمهله حتى يصلى ركعتين ، ثم يذهب معه الى حيث يجلس حلقة المسلمين دون ان يتجه اليه أحد .

وسلم الرجل على الحلقة ، وهنأه بسلامه الوصول الى ارض الله المقدسة ثم سكت عن الكلام ، فدعاه المنصور الى الجلوس قبالته فجلس قال المنصور فى وداعة سمعتك فى طوافى تشكو الى الله ظهور البغى

والفساد في الأرض ، وما يحول بين الحق واهله من الطمع فوالله لقد حسبوب مسامعي بما اوجعني

قال الرجل قد سكوت الى الله وحده ، ولم اسكت الى المنصور

قال المنصور اسلم ذلك ، وما من سلطان لي عليك في هذا الحرم ، انما احسب أن بعين لي بعض ما تراه من البغي والفساد لعلنا نقدر على الا يكون في ايامنا بغي أو فساد قال الرجل وهو يرفع عينيه الى وجه المنصور يا أمير المؤمنين ان امسي على نفسي اسألك بالامور من أصولها ، والا احتجب مني واقتصر على نفسي فيها لي ساعل

قال المنصور على مسمع من الربيع ومن ابي حنيفة اب آمن على نفسك فقل ما يجب ان تقوله ولا بني بشيء مما يحدثك به نفسك

سكت الرجل برهة كانما يستجمع شتات افكاره ويرتبها ثم قال

ان الذي دخله الطمع حتى خالط نفسه ونفس ما ظهر من البغي والفساد لهو انت يا خليفة المسلمين

تعجب المنصور من جرأة الرجل ، وكاد وداعه ان يرتاله ، لكنه كظم ما يمور في اعماقه ثم قال ويحك كيف يتخلى الطمع بسهما ذهب الدنيا في نفسي رفضتها في سبيلي ، زهدي من الطعام والشراب حلوه وحامضه ؟

اجاب الرجل على الفور وهل دخل احد من الطمع ما دخلك ؟ ان الله تعالى استرعاك المسلمين واموالهم فاغفلت امورهم واهتممت بجمع اموالهم ، وجعلت بيتك وبينهم حجابا من الحرص والآخر وأبوابا من الحديد وحفنةمعهمالسلاح، ثم سخت نفسك فيها عنهم ، وبعثت عمالك في جبايه الأموال وجمعها ، وقويتهم بالرجال والسلاح ، وامرت بالا يدخل عليك من الناس الا فلان وفلان ثم سميتهم ، ولم تأمر بايصال المظلوم

ولا الملهوف ولا الخائف العارى ولا الصغير الفقير ، مع أن لا أحد من المسلمين الا وله فى هذا المال حق معلوم

وهنا تململ الربيع الحاجب وهم بالوقوف ، لكن المنصور صوب اليه نظرات صارمة عاد على اثرها الى جلسته الأولى ، ثم اتجه بعد ذلك بكل جوارحه الى الرجل وهو يقول انى منصت اليك يا أخى فهات كل ما عندك

استأنف الرجل حديثه بعد ان جذع الربيع بنظره ناقده

واعلم يا أمير المؤمنين ان هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك ، وامرت الا يحجبوا عنك ، لما رأوك تحصى الأموال وتجمعها ولا تقسمها قالوا عنك « هذا قد خان الله فما بالنا لا نخونه وقد سخر لنا نفسه ؟ ثم انهم ائتمروا فيما بينهم الا يصل اليك من علم احوال الناس الا ما أرادوه واذا ما خرج لك عامل يخالف أمرهم ويعصى بن الرسه بالحق والعدل ، عاونوه عندك حتى يسقط منزلته ويصغر قدره فلما اقتدر ذلك عندك وعن بطانتك والمقربين اليك بلا حجاب ، اعطتهم الناس وهابوهم فكان عمالك اول من صانعهم بالهدايا والأموال لتعووا بها على ظلم رعيتك ثم فعل ذلك من غير بطانتك ، ذوو القدرة والثروة من رعيتك لنالوا به ظلم من هم دونهم ، فامتلأت بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا ، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وانت غافل »

وسكت الرجل برهة ونكس رأسه الى الأرض ، ثم رفع عينيه بغتة الى وجه المنصور فلمح فى عينيه دموعا توشك ان تسيل على صفحة وجهه الا ان الخليفة تمالك نفسه واندفع يقول فى صوت منحسر ويحيى من نفسه ومن حساب الآخرة « ولكنك تعلم يا اخى وتعلم المسلمون فى اقطار الأرض انى احلس الى الناس فى كل يوم لاسمع مظالمهم ثم انفذ كلمة الحق بينهم فما الذى تنكره علينا فى ذلك ، ولكل امرىء قلب ولسان يتحدثان عنه فى السر وفى العلانية ؟

استسلم الرجل الزاهد ، واخلص المنصور نواياه نحسها الرجل في صدره ، هي افصح من كل كلام ، ولم يلبث ان قال اصلح الله أمير المؤمنين وحمله بالعافية الذي تعلمه انه اذا جاءك مظلوم ، حيل بينه وبين دخول مجلسك ، فان اراد رفع قصته الك بعد ظهورك ، وحدك قد تهب عن ذلك واوقف للناس رجلا ينظر في مظالمهم حتى اذا بلغ بظلامته حيره ، سألوا صاحب المظالم الا يرفع مظلمته الك اذا كان المشكو منه واحدا من بطانتك او من بلوده بهم ، ولا يزال المظلوم يختلف الى صاحب المظالم الذي اقامه يريد به يشكو ويستعين وهو يدفعه ويعلل عليه واذا ما افلح المظلوم في ان يقابلك وان يشرح بين يديك شاكيا ضربت مرجاليكون بكلا لعينه واذن ينظر ولا ينكر الا ان امير المؤمنين وخليفة المسلمين يعلم نفسه ملك الصين في هذا المقام

ويسكت الرجل ليخطه رسما يأذن المنصور بالحديث عن ملك الصين ، ثم يميل المنصور بنظره الى ساحة الحرم ، فيرى اسراب الحمام الأبيض تقف على كتف المصلين بازاره يخطو على صهوة الساجدين بازاره اخرى ، ثم يمد اكثر التحديق الى الموضع ساعة من الليل ريثما تؤدى لصلاة الفجر

واخذ المنصور جهدا ان ينصت الى حديث الرجل عن ملك الصين فقال ليس اخذ النفس من سماع حديث عن ذلك الملك الذي نعتبره هيبة في نفسي المسرة لعل في ذلك عظة وعبرة

قال الرجل قد كنت يا امير المؤمنين اسافر الى بلاد الصين فعدمتها مرة وقد اصيب ملكها بسمعه ، فبكى يوما بكاء شديدا فجعه جليسه يؤمه على القصر فقال ليت اخي للملة الناولة بي يكفي اخي المظلوم فليت يشرح ولا اسمع صوته اما اذهب بصري فان بصيرتي لم يذهب بدرا بي الناس على كل مظلم ان يرتدي يوما احمر وكان هذا الملك يركب الفيل طرفي نهاره وينظر في الناس ، ثم يدعو اليه كل من لبس يوما احمر يحقق بنفسه في ظلامته

فهذا يا امير المؤمنين مسرك الله علمت رأفته بالمسركين سح نفسه، وانت مؤمن بالله ومن أهل بيت نبيه لا تعلب رافتك بالمسلمين على سح نفسك ، فان كنت تجمع المال لولدك ، فقد أراك الله عبرا في الطفل يسقط من بطن امه وماله على الأرض مال ، ولست بالذي تعطي ، بل الله يعطي من يشاء ما يشاء . وان قلت انما اجمع المال لأسيد السلطان ، فقد اراك الله عبرا في بني امية ما أغنى عنهم مالهم وما جمعوا من الذهب والفضة ، وما اعدوا من الرجال والسلاح حتى اراد الله بهم ونكم ما أراد

لم تقو المنصور على أن يوقف مسيل الدموع من عينيه المحصلتين ، وأخذ يسح في صمت ويمسح عبراته على حين أن أبا حنيفة والربيع سكران الى الرجل تارة ، والى المنصور تارة اخرى ، حتى اذا ما هدأت نفس المنصور واستعاد حاسه ، قال لمحدثه ليتني لم أحلق ويحك كيف احال لنفسي حتى تعلب حسابي سيباني يوم الحساب ؟

قال الرجل يحسب على سائل المنصور يا أمير المؤمنين ، ان للناس أعلاما وأئمة يفزعون اليهم في دينهم ويرضخون لهم ، فاجعلهم بطانتك يرشدوك ، وشاورهم في أمرك يسددوك ويسددوك .

قال المنصور قد بعثت اليهم فهربوا مني وتباعدوا عني .

قال الرجل خافوا ان تحملهم على طريقك ، ولكن عليك ان تصح نيتك ، وان تسهل حجابك، وان تنصر المظلوم وتمنع الظالم ، وأن تأخذ الفيء والصدقات مما حل وطاب ، وانا الضامن عنهم ان يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة

وانطلق صوت المؤذن لصلاة الفجر فقام الناس واصطفوا للصلاة ، ثم عاد المنصور الى بساطه والوجوم يكسو وجهه والهم يجثم على صدره لم ينم لحظة ، وظل يتقلب على فراشه تهما لأفكاره المضطربة حتى طلع الصباح .

اعترم المنصور فى نفسه أمرا اعترم ان يستعمل ذلك الرجل الزاهد أمينا على الخراج ويسوس مظالم الناس ، ولو اعتصب فى ذلك كثيرا من مشاورهم او يعهد اليهم مصالح المسلمين .

وحين دخل اليه الربيع الحاجب ، طلب اليه ان يبعث من يحضر رجل الأمس ، ولم يكاشف المنصور حاجبه بما يعترم .

وذهب الربيع فى صحبة غلمانه وخدمه يبحثون عن الرجل الذى طلبه خليفة المسلمين

عادوا طيلة النهار يروحون ويجيئون فى كل بقعة من مكة ، وأخذوا يسألون الحجيج عن الرجل ، ويترسمون فى الوجوه ، ولكنهم لم يعثروا للرجل الزاهد على أثر

"رجل من البادية ..."

اتسعت عموم المناطق من سماء « عبد الملك بن مروان » الخليفه الاموى الخامس ، وصفا له الجو فى جميع الأمصار ، واجتمعت عليه الكلمة فى كافة ارجاء الامبراطورية الاسلامية ، بعد ان خلص من اكبر منافيه ، وقتل « عبد الله بن الزبير » فى مكه عام ٧٣ للهجره .

ومن قبل مقتل « ابن الزبير » الذى اسمرت خلافته بارض الحجاز تسع سنوات ، اريقت دماء كثير من المسلمين خصوصا ارض العراق فى حروب السبعة والخوارج وفى سبيل القضاء على رجل الفتنة الكبير « المختار الثقفى »

كانت حروبا ضاريه استنفدت الجهد الكثير والمال الموفور ولولا ان وفق « الحجاج بن يوسف الثقفى » الى جانب عبد الملك وبذل اقصى ما يملك من ذكاء وسعه حيلته وسدده بلاءه ، لما قدر لحكم بنى أميه ان يمتد ويطول الى ما يقرب من مائة عام

نعم . كان « الحجاج » العربى الموفد الذهن يقف من وراء خطط القتال ويرسم لقادته وعماله اسلوب الخطاط على الاسلام ، ويوجههم الى مواقع الانتصار والقضاء على المتربصين بالدولة الاسلامية الفتية ، ولا يألو جهدا فى اعداد الجيوش من خيرة المحاربين وامدادهم بأدوات الحرب والعتاد ، رغم تعدد الجبهات وتعدد الثغرة منها ومن قواعد الامداد

فى ارض الجزيره والعراق ، كانت رحى الحرب دائرة على اشدها بين « عبد الله بن رواد » الذى ندبه الخليفة للقضاء على « زفر بن الحارث »

وسلمان بن صرد كبير الشيعة و « المختار بن عبيد الثقفي » رحل الفسه الكسر الذي فل في حربه مع مصعب بن الزبير

وفي الحجاز ، سير الحجاج بنفسه الى مكة ، وضرب من حولها الحصار لتطهر بعد الله بن الزبير ، ثم نصب عليها مذائف المجانيق بلا هوادة أو رحمة باهلها ، وفي النهاية تسلم ابن الزبير وقتل ثم نصلب على ابواب المدينة المقدسة .

وفي الهند ، تدب الحجاج القائد العربي الشاب « محمد بن القاسم » لرد عصيانها واعادة كلمة المسلمين عليها ، كما تدب « قتيبة بن مسلم » لحرب فارس التي ما انفكت تنقض عصا الطاعة ، وتقتل عمال الخليفة ، وتمنع عن اداء الجزية لبيت مال المسلمين

كل هذه الحروب في اكثر من جهة ، انما كانت امتحانا عسيرا للعرب وقدرتهم ، وهو حين درس لرجل للناس ، ولم تكن ليصمد في هذه المعارك بجانب هذا المعين الذي الا اصلب الرجال عزما واشدهم عزيمة على الاسلام من أمثال عبد الملك بن مروان وولديه الاول الحجاج بن يوسف الثقفي

ومهما عيب على الحجاج انه اراد ان يسوس الناس بالعسف والجور فان القلب المنصف يلتمس للرجل اكثر من عذر لهذا المنهج الدموي الذي اتخذه الحجاج لسياسته ، بعد كانت الفترة حبلى وسائقة تموج بالمؤامرات والدس والسكيك في صفوف المسلمين تريد دمهم، ولما ينقض عليه حتى خلافة عبد الملك الا فترة نصف قرن من الزمان

ولو قد نجح الظالمون، أو انتصر السفهاء ، او كسب الخوارج ، او رجل امر فارس والهند ، او ظفرت اي جهة معادية بموقع جديد ، لصارت الامور فوضى لا رابط لها ولا ضابط ، ولما كتب للامويين وللمسلمين معهم ان تسود لهم كلمة

احد على الحجاج قسوته وبطشه وولوعه فى السفاء ، وما درى المؤاخذون ان هذه القسوة كانت كفيلة برد المرتدين بالاسلام على اعقابهم واحماد سعيهم الى غير عودة .

ولقد عرف «عبد الملك» كيف يفيد من بأس «الحجاج» ويستعين بصلابته على معالجة الشدائد ، ولم يلبث ان ولاه على امارتى مكة والمدينة بعد عزل « ابن الزبير » ووكل اليه ضبط امور العراق وفارس عام ٧٥ الهجرة حيث لقب آنذاك بامير العراقين

ورضى الحجاج بذلك التكليف من خليفة المسلمين وطاب نفسه الطموح بهذه الثقة مع ما فى حملها من مشاق جديدة خلقها لرجال الحرب الصروس الذى يرغب فى كل شدة مباحة على شهيد ومأساة على فقيد

ودخل الحجاج مدينة الكوفة فى اثنى عشر راكبا من رجاله يتلى الجانب واتجه من فوره الى المسجد ، وصعد المنبر وهو ملثم بعمامة حمراء واجتمع عليه الناس وهو ساكت لا ينبس بشفاه بحرف وتعمد الحجاج ان يطيل من سكوته وان تتفرس فى وجوه الناس الذين استبد بهم القلق والوجوم ، وعلى وجه كشف اللثام عن وجهه الصارم وقال هذا الشعر المشهور

انا ابن جلا وطلاع الثنايا متى تضع العمامة تعرفونى

واخذ يمطر وعيده وتهديده فى اسماع الناس وهم ارا عليهم كتاب امير المؤمنين ثم غادر المسجد الى داره بعد ان حمل الهواء كل ما نطق به لسانه الى البيوت والأسواق والى كل بقعة فى مدينة الكوفة

ومنذ اللحظة الاولى التى استبد فيها الحجاج بالكوفة اخذ يتصرف امور العراق وتولى جلساء عماله على امارتها ويطارد فلول الفتنة فى الأطراف البعيدة ، ولا ينام فى الليل او يهجع بالنهار الا قليلا

على ان أعظم ما كان تؤرق نوم الحجاج ونقص مضجعه ، هي تلك الفتنة التي ما انفك أهل فارس يذكون نارها ويقلبون جمرها بين الحين والحين ليستعيدوا على نصيبها سالف دينهم وأمجاد الأكاسرة

وبينما الحجاج يستروح بعض انسام الصيف الصيفية في فاحة نطل على بستان داره ومن حوله قاده رايته ومستشاريه وطلبته العروف الرمادية يرجف حينا على الكون والكائنات ، دخل الحاجب يعلن وقوف رجل بالباب يدعي لقاء أمير العراقين ، فسأل الحجاج حاجبه عن علقه ومن الرجل ، واي ريح هوجاء القت به في مثل هذه الساعة ؟

اجاب الحاجب على الفور بقوله انه من ذوي قربى الامير واسمه حسان بن مسعود النهمي

عاد الحجاج في سرجه طويله تلك حاجبه وانما ترقب همس سمعه وعاد بخياله القهقرى الى بني نهمه الى اهله وناسه وقرنائه ومدارج طفولته هناك في بطاح مكه ، وسأل نفسه ان هو اليوم منهم بعد ان ضربت بينهم السنون والاحداث وقرب قريبهم عن بعيدهم ، وطوحت بمضر الداني والقاصي ، وسلطت الكسر والصغر بنا تجري في أرض الحرة العربية ناره ، او بنا تدور في أمصار تجمع تومند لكلمة العرب والمسلمين ، وقد كانت من قبل دولا وممالك تخلق حولها حبال العرب ، وتحدث شأنها الرواة ، وتنسج من تاريخها الملاحم والأساطير

وطالت سرحة الحجاج ، ونسي احد جلسائه الى وقوف الصيف خارج الدار فتمتم بكلام غير مسموع ، وأفاق الحجاج فاعاد السؤال من جديد عن اسم الواقف بالباب ، واجاب الحاجب انه حسان النهمي ابن عم الأمير ونجب الحجاج في نفسه من مجيئه اليه هنا في الكوفه بأرض العراق ، وهو الذي لم يبرح البادية يوما ولم يغادر مضاربه او ترضى معيشه الحضر بدلا عن الحياة في الصحراء

اوماً أمير العراقين ان ندخل الرحل ، ثم مضى لخطاب ظلت الابصار خلالها معلقة بباب القاعة الفسيحة ، ولم يلبثوا ان سمعوا صوت الخادم يستأذن لدخوله ويتساءل عن مكان الحجاج وحينما لمح صبيه بعد فترة من ردائه الندوى قام اليه باسطا ذراعيه يستقبله ويعانقه في حفاوة ويتخير له مجلسا الى جواره ، ويأخذ في سؤاله عن حاله وحال قومه واحبارهم ، ويعرج من طرف خفي مستائلا عن أي ريح ألجأته على ترك بادئته والقدوم اليه على بعد المسافة وطول المسير

واجاب حسان ضاحكا انني جئت رجل من البادية وربما لا ارضى ان معيشتها عوضا أو بديلا ، غير انني علمت منذ حين انك تملك هذا القصر بعد ان تركت الامارة على مكة والمدينة ثم حدثني النفس ذات ليلة ان أشد الرحال اليك لأقف بعضي على ما وصلت اليه من علو القدر، ولأرى بعيني عظم مكانتك ، ولافخر بين قومي بما أنجبت بعيني

ورأى الحجاج حدث ابن عمه فقال مرحبي مرحبي يا حسان ومرحبا بك في دارنا ، انما الملك يؤتيه الله من يشاء ولقد اراد امير المؤمنين « عبد الملك » حفظه الله ان أكون واحدا من خدام ملكه ، فامتثلت لما أمر به

اردف حسان يح يا حجاج يبدو ان القوم اصدقوني القول ترى صحيح انك عدوت بلعب بأمير العراقين ؟

اخذ الحجاج يضحك من سذاجة حسان ولحظ رفاقه انبساط اساريره من حديث ابن البادية ولقد احب الحجاج حقا ان يسترسل معه لريح دهمه المكدود لولا خطوره ما كان يساوله قبل حضور صبيه ، فضيق لجاجته رامزه ان يعمل على راحة ابن عمه بعد رعناء السفر الطويل ، وعرض عليه ان يقوم الى داخل الدار ليصب حظا من الراحة والطعام

لكن حسان سكر لمصنعه امير العراقين ، واحب ان ينعى مع القوم ربما تفرعون من سنون حدثهم ، ثم ينفرد بعد ذلك بنصيحة ابن عمه الحجاج

واستأنف الحجاج حواره مع قادته في سنوات فارس يستعرضون اسماء من ينعب بهم الأمر الى الولايات العاصية ، ويتبادلون الراي في صلاحه هذا ودهاء ذاك من اسداء الرجال ، وفي النهاية نصب ولاية « اصفهان » الى جذب كل من تولى امرها من قبل

وبهر جذب القوم حسان وسد فصوله وانتباهه فهذا جذب عن جذب البادية والمضارب والرعي والابل والمطر انه جذيب عن مصائر الناس ، وعن ولاة يعملون كراسي الحكم وتقصون الرواتب ليعتسوا في رغد ووافر نعمة

ويجذب حسان نفسه انه ابن عم الحجاج امير العراقين الذي تولى الحكام وبسط لهم في أسباب الحياة الرخية ، ترى الا يحق له ان يتولى هو الآخر احدى امارات فارس مثل الآخرين ؟

وفجاه تقتحم حسان الجذب على الحجاج وصحبه قائلا ايها الأمير ، أرائد تولي اقربائك وصحبك ، فلم لا تولني بعض هذا الخير ؟

نظر الحجاج مستغربا الى ابن عمه ولم يلبث ان ابتسم في وجهه وقال هؤلاء يكسبون ويحسنون ، وانت لا تكسب ولا تحسب

وهنا استبد الغضب بحسان فقال محتدا بلى اني والله لأحسب منهم حسبا ، وأكثر منهم بذلا يا حجاج

وكأنما التقطها الحجاج سانحة يروح بها عن نفسه اثقال ما يضطجع في عقله وقلبه ، واستعذب ان يداعب ابن عمه مثلما كان يأتيه معه في

طعولته السعده ، فاصطنع الحـد والوقار ولم يلبث ان قال ان كنت كما نزعم يا حسان فبين لنا كيف نقسم ثلاثه دراهم بين اربعة رجال ؟

وهنا احد حسان يتململ في وجه الحجاج تاره ، وفي وجوه رفقائه تاره اخرى وهو لا يفتا يردد ثلاثة دراهم بين اربعة رجال ثلاثة دراهم بين اربعة رجال ثلاثة بين اربعه لكل واحد منهم درهم وبقي رابعهم ثلاثي عجب والله ! كم الرجال يا حجاج ؟

وكاد الحجاج يقلب منه وقاره وهو يلحظ حيره رجل البادية ، واحس بسوحة ضحك ساتته يوشك أن يعصف به فقال وهو يداري فمه بيده ربعه رجال وثلاثة دراهم يا حسان

سكت حسان برهه والقوم ينظرون حواليه ثم قال نعم يها الامير قد وقعت على الحساب والحسبة لكل واحد منهم درهم ، واما اعطى الرابع درهما من عندي

ومد يده الى جيبه واخرج درهما قدمه الى الحجاج وهو يقول معطيا والله ما رايت كاليوم رورا مثل حساب هؤلا الحضريين

وإلى هنا لم يحد الحجاج مفرا من اطلاق ضحكه المكبوت من عياله واندفع يقهقه في دوي يحاوب في الفاعة صداؤه ، كما احد صحبه يضحكون من حوله حتى طرف الدموع من عيونهم ، بينما حسان يطلق انفهم مسدودها في اول الامر ثم عصف به العصب واحد يضرب من الحجاج ويقول والله يهر يابن عمك يا حجاج ، كانك بذلك يهرا من نفسك ايضا لعلمي احتفاظ بالقدوم الذي هنا في هذا الحضر ويحسب مسفه الوحيد وما كان اعنائي عن كل ذلك الهراء عدا افارق دارك وموقع سلطانك يا حجاج واحذر اهلك هنالك بغباطتك وسوء خلقك

واسفص حسان واقفا والسخط برعس بدنه وغادر القاعة ، فصـــفق الحجاج لحاجبه واسار اليه بالحول دون خروج صبعه فى هذه الساعه من الليل

ثم آن لمجلس الحجـــاج ان ينفض ، فغـــادر الرجال دار أمير العراقين على ميعاد جديد فى صحى الغد ، لاختيار وال يصلح لامارة « اصفهان »

* * *

خلا الحجاج الى نفسه قبل ان ينعب فى استدعاء حسان من داخل الدار ، وأحب يسترجع مادار فى القاعة قبـــل أن يغـــادره مســـتشاروه ، ويرقب فى وجهه فكره احد يحلل فيها وجوه الرأى هذه الامارة الخاصة « اصفهان » التى يجتمع فيها دهاقين الفرس وكبراؤهم وعظماء تجـــارهم واربابؤهم ، وكلما اباهم وال اغتروه ودجروه ، مادا لو رشحتم بابن عمى « حسان » لمداواته وعجهجته فعساه ينجح فيما لم ينجح فيه من سبقوه ؟ ويمضى الحجاج يحاور عقله ويداوره لقد لمح فى عمى حسان وفطنة ذكاء فطرى وحصفا ينفع اكثر مما يضر

وصفق الحجاج لحاجبه وطلب اليه احضار طعام العشاء له ولصبيه ، وان يستدعى ابن عمه من داخل الدار ودخل حسان صامتا وظل واقفا ، وقام اليه الحجاج واخذ بقبل رأسه ويعانقه ، ثم أمسك بيده واجلسه الى جواره واخذ يضاحكه معاتبا ثم قال

— ترى مادا تقول يا حسان لو تولىت امارة « اصفهان » من قبل ابن عمك الحجاج الثقفى امير العراقين ، والجراح مكسور على اهلها مذ تـــلاث سنوات ؟

قال حسان مبتدا وفى عجب مستور اراك عدت الى هدرك ياحجاج ابى معاذرك الى البادية فى صبيحة الغد

وجاء الخدم بالطعام ، وفي خلال تناوله ادرك حسان ان الحجاج جاء في هذه المرة ، وانه سيخبره في امر لم يتح له من قبل ، وانه على بعض سلفا ، بان ذكاءه وسعة حيلته سيكونان له خير عون ونصير

* * *

خرجت قافلة « حسان بن مسعود البصري » أمير اصبهان الجديد الى عادتها في صبيحة العيد ، بعد ان زودها الحجاج بكتاب للخراج واعوان للأمير الى حاشية كتبه من اسداء الرجال راكبي الأفراس أمرهم الحجاج بان يكونوا لحسان اطوع له من طرف البنان

وسارت القافلة اياما اخترقت خلالها ولاية بعد ولاية في ارض فارس، وكان حسان ينزل مكرما على امير كل ولاية يصل اليها ، بعد ان ينشر كتاب امير العراقين الذي وجهه اليهم ليعهدوا الى بحدبه اذا دعت الحال

واشار دليل القافلة لحسان على مسارف « اصبهان » قبل ان تدخلها القافلة ، وطلوع حسان بصره اليها ولم يكن قرص الشمس الارجواني قد غاب في الظلمة بعد ، فرأى مبانيا عالية كأنها اذرع تمتد الى السماء وقد انعكست عليها خيوط الشمس المذهبة فبدت بديعة للعين والناظرين

وكلما اوغلت القافلة في سيرها الخيب الى مدخل المدينة ، لاحت للعيان الاشجار اليانعة الخضراء تحيط بقصور الأثرياء وتسير ورودها وازهارها الى ما يحظى به القوم من عيش رخي وجاه باسم

امضى حسان اول ليلة له باصبهان في دار الامارة ساهر الطرف يقلب وجوه الرأي في هذا المأزق الذي أوقع نفسه فيه هذه الولاية الغالية وأهلها من غير العرب ، وقد اعتزوا من قبل كل وال عربي وفد اليها ترى ماذا يستطيع ان يفعله وهو لم يتمرس من قبل بمثل هذه الأمور ؟

وفي الصباح وفد على دار الامارة وجوه المدينة ورؤساء طوائفها يسلمون على الوالي الجديد ويعلنون خضوعهم لكل ما يامر به حلفه المسلمين وعماله من العرب المقيمين

ثم تقدم « صفوان » عميد تجار البسط والطنافس والرياش لتحية الوالي الجديد ليبسط تحت قدميه بساط الحكم من افخر ما انتجه ايدي عمال اصفهان ، وليلتمس قبول هديته المدينة من الطنافس والرياش واواني الفضة والبلور التي يليق بمقام عامل امير المؤمنين

واشتم حسان رائحة الرشوة في جانب « صفوان » الذي تمتع مسلما بمنى بسطه وسجاجيده الفاخرة ، والرشوة من قبل ومن بعد ، سبيل معبد الى قلوب الحكام والولاة وحتى الملوك ، تصل الراشين في بهائمه الى تحقيق رغباتهم حقا كان أو باطلا !!

واشتعلت عروق الغضب في جسد حسان وهو يشهد الرجل الفارسي يشير امام الملأ بساطا راقيا في لون العشق ونسجه زخارف ونقوش تاخذ بالألباب ، ويشير الى خدمه ان يتقدموا الى حيث يجلس الوالي ويضعوا بين يديه ما حوته الصناديق من فاخر التحف والأثاث

قال حسان في صوت جهير ورعد جده وعصا احمل بساطك وتحفك ايها الفارسي فلا حاجة لنا بها انا لم نعتد المشي على المخمل ، فبساطنا هناك في رياض مكة صنعه الله لنا من رمال صحرائنا الصفراء وهو ممتد الى غير نهاية ولقد ولاني الحجاج عليكم لأحمد فيكم وانمع عصائكم ، ولا تعجبني ان اقومكم بالسيف اذا عدتم الى سالف عهدكم ، وهدى جوسيا نرى العين اولها ولا ندرك آخرها يا كاتب الخراج

وجاء كاتب الخراج مهرولا ووقف الى جوار حسان يتسلم اوراقه فقال حسان لماله كم خراج اصفهان المكسور على اهلها ؟ واجاب كاتب

الخراج انه عشرة آلاف دينار في كل عام وهو مكسور عليهم منذ ثلاثة اعوام ، فيكون المطلوب لبيت مال المسلمين ثلاثين الف دينار بالتمام والكمال

وقال حسان للقوم هذا هو مطلوبي يا أهل اصفهان فكيف يمكن ان احصل عليه بحد السيف ، او بالقول الحسن منكم ورضاكم ؟

واربعت همهمات القوم وتطارب صخبهم وما لبث صفوان ان اقترب من الوالي وهو يقول

— ايها الأمير الموصول بالسعد قدومه نحب ان تسمع حجتنا اراء تقصيرنا عن ادا الخراج طوال تلك السنوات ، واقض بعد ذلك ما انت قاض

ولاذ عروق الغضب في حسان واحد تنفرس في وجه صفوان وتكاد تحرق ضلوعه بنظراته الحاده ثم قال تسمع اليك يا فارسي ولكن اطالة والمراوغة فلن يصفوان وهو يرفع كلتا يديه الى راسه مبالغة في توقير الامير اصلح الله اميرنا وحمله بواسع الحلم ، ان اهل اصفهان قد نزلت بهم شدة أكلت حرثهم وسلبهم ، ولم تبق فيهادار الا احدثت من خراب الله بعدوفرتها وبلسس من الأمر مهلة تسعها حلمه لتؤدي ما علينا من الخراج المكسور

ولم تهدأ حسان على الفور ، وظل ينفرس في وجه « صفوان » ثم اسعفه ذكاؤه الفطري ان يقول للفارسي الذي يتحدث بلسان اصفهان عاجلا عوده

— قد قبلنا حجتك يا صفوان وسنرجئ لك ان تحدد بنفسك مهلة ترتضيها اهل اصفهان تؤدين بعد انقضائها خراجهم المكسور

وسرت همهمة سرور في جموع الناس بعد ان حسبوا رغبتهم جادة على كسر حدة الأمر ، ثم تهللوا بعد ذلك من وعدهم مثلما افلتوا من قبل قال صفوان للأمر وهو يدعو له بالعمر المديد

— نرضى بتسعة اشهر ايها الامير تودي بعدها مطلوبك كاملا غير منقوص

وهلل أهل اصفهان لهذا الكسب ، واخذوا يدعون للأمير ان يسير ظلال عدله على مدى الأيام والأعوام

ثم لاحظ تسمه تسره على سعي حسان قبل ان يقول

-- وسته اسهر اخرى من قبل امير المؤمنين « عبد الملك بن مروان » حفظه الله ورعاه

وعند ذلك تعالت صيحات الاستحسان والاكبار لمحامد امير اصفهان ، والله وحده يعلم ما تضمرون !

ولما ان هدأت موجات السرور وخفت الهمهمات ، اشرف الاسماع صاحب الأمير يقول صيحا يا قوم اما وقد هركم الفرح بعد بوال ما اعلمه فيه ، فاني اريد عشره ضمان يتعهدون بالكفالة على صك يمضي بحد ، للوفاء بالوعد في موعده

وقال حسان لكاتب الخراج ان يحرر الصك ليوقع عليه عشره من وجوه المدينة اداء ثلاثين الف دينار في نهاية عام يبدأ من اليوم

وتقدم الضمان العشره وكان اولهم « صفوان » عميد تجار السمط والطرائف ولما ان فرغ كل منهم من وضع اسمه على الصك ، اشار حسان الى رجال شرطه فطوقوهم حتى لا يبرح واحد منهم مكانه ثم قال للقوم المحتشدين

- قد رضينا ورضيتا مهلة تضاعفها لكم ، وسنمضي ضمانكم العشره صيحا على حليفه المسلمين في دمشق طوال عام المهلة ثم نعيدهم الى اصفهان بعد انقضائها واداء المكسور عليكم من الخراج

وادخل الصمان العسره دار الامارة ، وباتوا لليلهم يضربون كفا بكف ويتحسرون لذلك الوالي الوافد من البادية الذي علمهم على امرهم وقهر مكرهم باسد منه !

وبطار الهمس في المدينة ، وأصبح مصير الصمان العسره حديث القوم في كل دار ومتجر وناد ، فمن قائل انهم سيرحلون في صبيحة الغد مع القافلة الذاهبة الى دمشق ، وقائل بان امر اصفهان سيقطع رءوسهم ليبعث بها الى الحجاج في الكوفة ، ومن

ولم ينم اصفهان في تلك الليلة خرج الرجال والنساء يجمعون قطع الذهب من كل دار ومن كل بئر وقفر ، ولم يطلع فجر اليوم الجديد حتى يجمع الناس امام دار الامارة يحملون اكياس الذهب والفضة

واطل حسان من نافذه عرفه فراى الجموع واقفه امام داره يرشون فتح الباب لابلاغ الأمير ان الخراج المكسور سيؤدى له اليوم رئيس بعد عام !

وافرح امير اصفهان عن صوفه العسرة ، واستقبلهم اهل المدينة كان دهرا انقضى على فراقهم وعسيهم ، او كانما قد عادوا من سفر بعيد

وقبل ان يغيب قرص الشمس عن اصفهان في ذلك اليوم ، كانت قافلة قافله تحث الخطى لتغادر المدينة في طريقها الى الكوفة حيث تنتظرها قافلة امير العراقين

" طائر من بغداد "

فرغ الشيخ من صلاة العشاء ، ثم عاد الى حلسه الأولى ، واسند راسه الى جدار الغرفة ، واخذ يتمتم بادعيه مبهما تتمتم بعد كل صلاه ، وكانت الغرفه قد اظلمت تماما الا من بصيص ضئيل يتسلل من خصاص النافذه التى تطل على السوق الكبيرة فى مدينه الكوفه

ولم تمض الشيخ بدخول خادمه « مسعود » تحمل المندبل بعد ان أشعل شمعه ، ثم تصنعه داخل كوته فى الركن القريب ، فرسل مع صوته الأصفر الخافت ، ظلال الأشياء المتعبه على الارض هنا وهناك ، بينما ظل « مسعود » يروح ويجيء وراءه وهو يعد ترتيب أثاث الغرفة ليهيىء لسيده فراش نومه ، بعد ان ينتهى له طعام العشاء

ولما ان فرغ مسعود من مهمته ، وقف بين يدى الشيخ يعرض عليه ما لديه من بقايا طعام يمكن ان يقدمه اليه فى هذه الليله فلم يرد الشيخ على خادمه ، بل نظر فى وجهه ، واخذ يحدق فيه طويلا حتى استراب الخادم فى نظرات سيده الذى لم يلبث ان قال

ـ اخبر يا مسعود أن تناول معنا ـ على غير المألوف ـ طعام العشاء فلدى حديث اخبر ان اتهيه اليك

قال مسعود بعد أن هدأ خاطره نائبى أنت وامرى ياسيدى ، قد فرغت منذ لحظه من عشائى وما أقدر ان أريد شيئا اما ما يحب ان يقوله لى فكلى ياسيدى آذان صاغيه ، وسيحدثنى، كما عهدت ، اطوع لك من بنانك

عاد الشيخ الى صمته لحظه ، واخذ يدير عينيه فى ارجاء الغرفه الواسعة وفى النهايه اراح نظراته على وجه غلامه ثم قال

ـ اذن تجلس فرسا مني يامسعود حتى توفر علي رفع صوتي بما لا احب ان تسمعه عيري وعيرك

وجلس مسعود على الأرض من بدن السبع الذي مد يده الجميله فوضعها على كتف مسعود ثم قال

ـ احب يا مسعود أن القي وجه ربي يوم الحساب نكيف راجحه من صالح الأعمال نظرا الى رصائه وليس تجهل يا بني ما صارت اليه حالي من ذل بعد عز ، وعسر بعد يسر ، وتفرق الأهل والصحب ما بين سرق وغرب ولقد اصحبي وجودك معي طلبا لنفسي ولك بعد ان بعد مالي ، ولم اعد املك ما أنفقه حتى على نفسي ، فما مالك وانت معي ، وانا مكلف بك أمام الله والناس

اغرورقت عينا مسعود بدموع غزيره ، اخذ يكفكفها بكمه ثم قال في الم ومادا تجب يا سيدي ان افعله ؟

قال السبع ليس احب ان تفعل شيئا الا ان تضرب في فجاج الارض معتمدا حرا تملك امر نفسك وحبائك ، باحثا عن رزقك في غير ضجيج رهاهي دنيا وسعه عينك ، فدمها عدا الى ضاحي الكوفه مع سهود لك لتصير حرا مد العدو وهادان ديناران هما كل ما املك بعد أن احجرت لنفسي منهما ، ولا تراجعني فيما امرت عليه امري ، فهلك وسلمي الى قربي من سلك كل سيء

خرج « مسعود » من دار الفضاء في الكوفه تحمل من يده ، وسمعه عينه ، وأخذ يطوي بساتين بالعه ، ثم اودعها مع جوانحه القليلة ، واتجه طريقه الى مكان القافله المسافره بعد صلاة الظهر الى بغداد

لم تكن قد شاهد بغداد من قبل ، انما ذكرها العدنى كان يسري في أوصاله كلما ذهب الى سوق الكوفه ليسري فيها حاجات سيده كان يسمع الناس يتحدثون عن بغداد فيتحدثون عن المدن المسحوره التي

سيدت فيها قصور احجارها من الذهب والفضة ، وفيها اسيتها ساطع السحاب وتلتف بها السمس فى دورانها فاذا هى متوهجة أبدا تخطف بريقها القلوب والأبصار وسمع اهل الكوفة يتحدثون عن بضاعة بغداد وتجارتها التى تأتيها فى قوافل البحر تحمل من الطيبات والحرائر ما ترحر به بلاد الترك والعرب من الحرير والصوف والديباج والبسط والطرائف وألوان الأطعمة والاشربة وصنوف الفاكهة ، وكل ما تنبت فى أرض الله الطيبة

كان حديثا عجبا عن بغداد وما تظلل حياتها من اسباب النعيم وآيات الرغد والهناء ، وما فيها لكل من يعيش تحت سمائها من فرص العمل والكسب والحياة الرخية

كانوا يتحدثون عن بر الناس بعضهم لبعض ، وكيف يعين القوى ضعفهم والغنى فقرهم ابتغاء مرضاة الله لم تكن هناك ثراء محمود ولا فقر ممقوت يطحن الناس بلا رحمة ، انما كان هناك عدل يقيمه الناس من انفسهم دون أحكام من القضاء والمشرعين ، ولم تكن احد تطمع فيما بين يدى احد آخر ، أو انسان يقطع الطريق على انسان آخر ليسلبه لقمة العيش او يصده عن عمله ليأخذ مكانه ، انما كان هناك حق يعلى صوته ويجهر به حتى يصل الى صاحبه

ولم تكن فى بغداد حاضرة العباسيين ارباب فى السكن والمأوى ، ولا صائغات فى الطعام ولوازم الحياة ، انما كانت هناك قواعد وانظمة تحرمها الكثير قبل الصغير والغنى قبل الفقير ، لم تكن فى بغداد اسواق سوداء لأقوات الناس ومساكنهم ، انما كان كل شىء ميسرا للجميع بالحق وبما امر به الاسلام حين دان أهل للناس

نعم كان عصر « المأمون » آنذاك ، عصرا ساد فيه الرخاء والعدل وحرية الانسان كان عصرا عباسيا فى اوج حضارته ، بعد ان فرغ جده « المنصور » من بناء بغداد عام ١٤ للهجرة ، لتغدو فى زمن الرشيد ولى

تولى بعده ، عروس السرى وكعبه الفصاد من اطراف الأرض تسعون التجارة والرزق والعلم والتثقيف وكل شئون الحياه ، بعد أن جمعت فأوعت ، وسملت فسادت

كان عصر رخاء نضب فيه الأموال مدرارا على بغداد ، ولم تكن المدح والتأنق فى أسباب الحياه مقصورين على الخلفاء والأمراء والخاصة ، بل كانا تسللان الى اوساط الناس وعامتهم ، ولم تكن مستغربا ان تحمل الرحل بضاعته فوق كتفه ، ويجوب بها احياء بغداد طولا وعرضا لتبيع منها ماتبيع وتشترى، ثم تعود فى ظلمةالغروب الى داره فتلقاه جارته بألوان العشق والوله ، وبعد ان تضيا عباءتهما على رباب الكاس والصلاب وتعباب العباء السخى ، تنامان فى حضور ما بقى فى الليل من ساعات حتى تسفر عن وجهه الصباح

لكم كان « مسعود » يحلم فى يومه ويغطه بالذهاب الى بغداد ليقضى فى معانيها أياما قصارا ثوب بعدها الى بيت سادته فى الكوفه سعيدا بما شهد وسمع ، ثم يصحو من يومه مفرغا على مطارق الخفقه المره التى تعترضها مع السبح الغابى رب الأسره الكبيره التى كانت الى وقت قريب ، اكبر ثوبات الكوفة ثراء ونعمه وخاصة عبس

لقد افلس سيده وتعسرت حاله بعد يسار عريض وربه عن اسيه وراد من كيده حتى بات مبار تتدر الناس فى كل بقعه بمدينه الكوفه ، ثم ترك الحاديات بالملح ، وتعرق اباء السبح فى فجاج الأرض ، بعد ان عرف للسبح قافلة له فى بحر الظلمات ، اسلمت معها اعلب ماكان يحرص عليه ، ولم يعد يملك فى الهيئة غير داره الكبيره التى اعروى فى عرفه منها بقية من الظل الذى يبقى له رسما تأسه أجله المحتوم

على ان « مسعود » على ما ترك سيده ، لم يئس تلك السنوات الهائلة التى عاشها بين أرجاء هذه الدار العريقه منذ حلمه صبيا من احد البساتين ذات يوم ، وقاسما درج مع ابناء سيده تلاعبهم ويداعبونه ، ويطعم ويربى

مسلما يطعمون ويرتدون ، حتى تعرف بسادته الحال، ومال بهم الزمان ، فأصبحوا فى عسر بعد يسر ، وألمت بهم عثرات الحياة ، والحياة من قبل ومن بعد ، بأحد وتعطى حينا ، وتأخذ ولا تعطى حينا آخر

وتحدث مسعود نفسه والقافله بعد السير لبضع مسافرسخ بغداد قبل ان يحتم الظلمة نرى ماذا يخبؤه لى القدر فى هذه المدينة الكبيرة التى لاأعرف لى فيها اهلا أو صديقا ؟ انى لا احسن عملا ولا حرفة غير خدمة سراة الناس وامراء القوم ، وانا اليوم حر مسلم ولاتسع لى أن اعود القهقرى مسلما كما

وهذان الدينارات اللذان لاأملك غيرهما ، ترى هل ستدفعان عنى عوائل الأيام وصروف العيش فى هذه المدينة التى سموها عروس الشرق وكعبة الفضاد من عرب وعرق ؟

ثم لاحت للعين قباب الدور والقصور ومآذن المساجد كانها اذرع ممدوده تتهلل الى رب السماء والأرض ان تديم للاسلام عزه وأن تعلى فى العالمين كلمته

ولم تلبث القافله ان خطت بركابها ووضعت اثقالها عند أول ابواب بغداد ، فأخذ كل مسافر يجمع حوائجه ثم يأخذ سبيله الى حيث يقصد

ولم يبق فى القافله غير مسعود الذى وقف حائرا لايدرى أين يذهب بعد أن زحف ظلمة الليل على المدينة ، ثم مضت لحظات اعقبت بعدها مصابيح الشوارع والحوانيت وقنادل البيوت فانبعث منها أنوار باهرة اضفت على ليل بغداد جماله تختلف تماما عن جمال النهار

اقترب مسعود من دليل القافله يسأله عن مكان خان قريب يبيت فيه ليلته ريثما يطلع الصباح الجديد ، فابتسم الرجل فى وجهه قبل ان يجيبه

ـ أينما سرت تلقى وحدت الحانات فى كل شارع وسوق ، وأنصح لك بالنزول فى خان الرمانين الذى يديره ابن عم لى ، سوف لا تأخذ منك كثيرا فهو رجل طيب وساعد الغرباء ، وأنت فيما يبدو تزور بغداد لأول مرة

وسأل « أبو جعفر » رفيقه الجديد عن هويته واوراقه ، ثم اثبت اسمه فى دفتر بين يديه ، وذكر سنه التى تجاوزت الخمسة والعشرين عاما ، وانه قدم من الكوفة سعيا الى الرزق ولقمة العيش وبعد مسعود صاحب الخان نصف دينار اجر اقامته بالخان طيلة شهر كامل ، فارشده الرجل الى مكان مبيته فلم يلبث مسعود ان القى بجسده المنهوك على الفراش ثم غاب فى نوم ثقيل

غادر مسعود خان ابى جعفر فى صباح أول يوم له فى بغداد وفى ذهنه أن يتجول فى شوارع المدينة الواسعة ويستجلى معالمها ويتحوس فى أسواقها لعل الله يفتح له بابا للرزق يغنى من ورائه مثلما يغنى الناس

رأى مسعود فى تجواله الدور العامرة والقصور الباهرة بطرق بأبلغ ما وصل اليه فن البناء الاسلامى من جمال يأخذ بالأبصار والألباب

ورأى البساتين الخضراء الباسقة بلفت بالعمائر والأسيجة لتحمى قطافها من لظى الشمس والهجير فى النهار ، ولتسعف مع قدوم الليل وسوسة نسائمه الرخية لأفنان السحر

ورأى مسعود الناس فى بغداد يلبسون فى موده بضاء ويسأل بعضهم عن بعض ويتبادلون اعذب الحديث عن احوال التجارة وشئون الدين والدنيا ، ويتحلل الأحاديث دعوات صادقة الى رب العباد ان ييسر الأرزاق وأن يرفع عن المسلمين ما يغصبه ، وان يهدى الناس الى صراط مستقيم

ثم فاديه فدماه الى سوق كبيرة لم يعرف ان أولهما والى أى آخرها ، ورأى بغيته سبيلا سيرا فى جحافل من البشر يروحون ويجيئون حاملين السلال والحقائب يسعون ويسرعون من جنبات الله الوافرة الى اردحب

بها الحواس والمناظر وارصفة الطريق وانصف النهار فاستدل الحركة في السوق ، وتعالى أصوات المنادين والدلالين تدعو الناس الى الفرح ومشاهده البضائع ولو لم ترغب احد أن تشترى شيأ ما

واحس مسعود بالجوع ، وتلفت حواليه ، فابصر بائعا حائلا يبيع فطائره محسوه بالرمد والرمس ، فاشترى منه واحدة احد نصفيها وتحول باطريه فيما تحرى من حوله

وافبل بائع من بعيد تحمل فوق راسه قفصا تداخله طائر ملون الريش وأخذ ينادى على طائره من يشترى البلبل الصداح ؟ من يشترى سيد الملاح ؟ البلبل الصداح سيد الملاح

وافترب صاحب البلبل من مسعود وهو يقول خير هدية الى أطفالك واهل بيتك ياسيدى

ولم يبرح البائع مكانه ، فالتفت اليه مسعود ثم قال ليت لى حاجه اليه اعاد البائع فى الحاح أتدرى انه بلبل صافر ربما من الحزائر ، قال مسعود وهو يقضم فطيرته لاسان لى بالطيور ياعم

غير أن صاحب البلبل لم ييأس فاخذ يقول طاوعنى يا سيدى انه بلبل نادر وسيدم كثيرا اذا لم تحمله الى بيتك سمعا قليل سيعنى ويصدح ويشدو لى بالخير انه رخيص الثمن دينارات فقط قال مسعود لاحاجه لى الى البلبل ياعم قال البائع انظر الى رئيسه الراهى الجميل اتسمع ياسيدى صوته العذب ؟ قال مسعود بعد أن راق له حديث البائع لا اسمع للبلبل تغنى بارجل تشدو انك سمعت بكاءه ومااحسبه الا حائما ار صادنا قال البائع سترى ياسيدى بعد ان تحمله الى بيتك ثم تطعمه وتسقيه تشدو ، سترى كيف تهز منقاره وتدلله ثم تسمع سادتا ياسيدى صوت دينارات فقط ثم بلبل بلبلا نادرا مكانه قصور الخلفاء والسلطان قال مسعود كفانى ان سمعت صوتك انك تسمع كلاما يا رجل أكثر مما تسمع من الطيور الله معى اصلحك الله

لكن صاحب الليل لم ينصرف ، وأرسل قفص الطائر من فوق رأسه واشار مكانا الى جوار مسعود ثم قال تحدثني فلني باسمك أن هذا الطائر من نصيبك ، ولو سمعت نصيحتي، دهشت به في صبيحة العيد الى قصر «ابراهيم ابن المهدي» عم أمير المؤمنين «المأمون» وسيدفع لك فيه عشرة دنانير قال مسعود ومادا تسمعك ان اذهب به اليه فذلك أربح لك من بيعه لي قال الرجل لولا ان تجهز الليلة للسفر الى البصرة ، لبعت الليلة من اجل هذا الليل الناذر هاك دنانيرك لتربح بضاعة

ومد مسعود يده الى قفص الطائر الجنس واخذ يتامل رأسه وهيئته، وقد أوشك أن يصدق كلام البائع ثم قال في نفسه لست أملك الا دينارا واحدا ياعم اما أن تأخذه ثمنا لطائرك أو تنصرف عني لشأنك

حدق البائع في وجه مسعود وهو يتسع الألم ويدي المرارة ثم قال
ـ ليت الناس يصدق بعضهم بعضا هاك دينارك وخذ بذلك العربد مباركا لك فيه

سار مسعود يحمل طائره حتى بارح ساحة السوق ، فراى نفسه في فضاء من الأرض ليس فيها بيت ولا قصر ولا دار راى حوله ارضا جرداء الا من بعض نبع خضراء وأشجار عالية سامقة منعزة عن يمين وشمال ، ومن خلفها يذب لعينه الداهش مياه نهر دجلة بروح ويجيء على صفحته الموارب والسفن والجرافات تحمل الناس والبضائع الى البصرة والى غيرها من العبور الى ضفتها النهر الكبير

وانسه « مسعود » الى ما يحمله بين يديه لما ان يحرك الطائر في القفص واخذ يرفرف في اعياء كأنما يطلب طعاما او سربه ماء ، ساءهما أدرك مسعود ما اقدم عليه من حماقة حينما انفق آخر دينار يملكه ليشتري طائرا حبيسا في قفص لن يحدثه اقتناؤه شيئا مادا ينفع بهذا الطائر وهو لا يملك دارا ولا مالا ؟

وظل أن يسند به لوم نفسه ويهم في أفكاره السوداء من جديد ، فتح باب القفص فخرج منه الطائر ثم أطلق صاحبه للريح ، واحد مسعود تابع الطائر بطرفه الداهله ، فرآه قد حط فوق أعلى شجرة واحد يبشر صاحبه باره ، وتصمهما باره أخرى كانما تستهج باطلاقه من القيد والجوع والظما

وجلس « مسعود » فوق سوء من الأرض تندب حظه العاثر في تلك المدينة التي لم يعرف لها اولا من آخر ، ولا يدري كيف يستقبل غده وهو حالي الوفاض

ثم جاب منه نظره الى حيث وقف الطائر ، فابصره زائل موضعه من فوق الشجره الباسقة وهبط الى الأرض ، ويدور حول جذع الشجرة العليظ حتى اذا ما دار حولها دوره أو دورتين ، اخذ يتنسم الأرض بمنقاره الدقيق، ثم يلف ويدور هنا وهناك ، ويعود ليعمل منقاره في الأرض الرخوه من حول الجذع العليظ

ولم يدر مسعود مادا دفعه لأن يرقب طائره الذي أبى أن يترك تلك البقعة الفاخله للتقاط طعامه من مكان آخر مأهول

قام مسعود وبارح جلسته بعد ان صافح نفسه بما سهده وما جرى له في يومه الحافل ، واتجه الى حيث كان الطائر يتنسم بمنقاره ، ولشد ما عجب حين أبصر اذن جره من القطار دفنت في باطن الأرض ولم يبد منها سوى تلك الأذن

كان الوقت قد جاوز صلاة العصر واخذ قرص الأرجوان يبدا رحلته الدائبة نحو الغروب ، وبدأ يخبو ذكاء بروح ويختفي في صفحة السماء ، ونظر مسعود حواليه فراى ذلك الفضاء الواسع لايحتوي انسانا غيره في هذه الساعة جلس الى جذع الشجره العليظ ، وأخذ يحفر بيديه حول الأذن الظاهره من الجره حتى ظهر عنقها الكبير الهب حماسه في الحفر من

حولها وبحرب من دهبه مسقاب ذلك النوم ، واحدب دقاب فلبه بزايد مع حركاب بديه السطتين حتى حلصب الحره فاسوى واقفا ثم حدبها بكلسا بدبه من حقربها الرطبة وأسدها على حدع السحر العلبط ربما سكن حأسه وسطم دقات فلبه المصطرب

وحين ادن لصلاه المغرب ، كان مسعود يحوس حلال السوارع المزدحمة حاملا حربه النصله فوق كتفه وسال كل من بقابله أين سوق الرباين أين حان ابي حعفر

واعلى مسعود باب حجربه ، وقضى الليل كله الا ساعه او ساعتين يحصي الدنابير الذهبية التي امتلاب بها الحره ، ولم بدر في البهابه اذ كان قد عد عشره آلاف قطعة او عشرين الف من الدنابير

وفي الصباح ، احد حسبه دنابير ، ثم اعاد عطاء الحره كما كان ، واودعها صمن حاحياته القليلة ، ومضى الى حارج الخان ، بعد ان اطمأصاحبه أنه سيرحل الليلة الى الكوفه وبعود منها في مساء الغد

وصل مسعود الى الكوفه ، ودهب من فوره الى دار سنده السبح ، فوجده على حاله التي بركه عليها مند رحيله بسكو الوحده والسقام، ويعيب في أيامه اليابعة التي دهبت ولن بعود

وامضيا في الكوفه ساعه وبعض ساعة ، ثم حرجا معا الى مكان القافلة المسافرة الى بغداد وبدأت القافله سيرها الحثيث ، وقد بمرت فيها راحلتان فارهتان اسوى السبح الطيب فوق واحده ، وفي حواره مسعود بركب الأحرى والحدب الضاحك العذب بداول سهما حتى لاحت منارات بغداد من بعيد

ومضت أيام استقبل بعدها سوق الرياش في بغداد ، سبحا وفوز الهيبة سجد همة عماله لسرعوا من وضع الصاعه فوق الارفف الكبيره وفي واجهة المتجر الكبير ، فلم تبق على حلول شهر الصوم الا يوم وليلة

ابتسم « المأمون » بعد ان استمع الى مسعود وهو يقص عليه حكايته مع الطير الحبيس ، ثم بدا له ان يسأله

ـ ولكن حربى لماذا يطلقون عليك هنا فى بغداد « صديق الصيور » وداع بذلك حرلـ حتى يلعبى ؟

اجاب مسعود وهو لم يزل على بدى الخليفه

ـ أعز الله أمير المؤمنين وعطر بالرخاء ايامه الزاهره قد عاهدت الله منذ طفولتى الا افعل شرا وان يوفقنى لأفعل خيرا ثم عشت بالحرة فعـاهدته مرة أخرى الا ارى طيرا حبيسا الا اطلقـه ولو كلفنى شرائه اضعاف ثمنه ، فليس هناك من شيء اثمن لدى المحلوق من حريته وليست اتفق يا امير المؤمنين فى سبيل ذلك ، الا مما ميسره لى صاحب الجود والعطاء وواهب الرزق لمن يشاء

صوت من الآخرة

بعض المسلمون الصعداء واستبشروا خيرا بعد وفاة « يزيد بن عبد الملك » وتولية أخيه « هشام بن عبد الملك » خلافة المسلمين في اخريات شهر شعبان من العام الخامس بعد المائة للهجرة

وما من أمر تتأدى منه المشاعر وينفر منه القلوب مثل أمر خليفة يتعقد على هامته الآمال ، فإذا به يجهر بمعصية الله ويقاد لشيطان شهواته ، ويتولى الى مهاوي الردى مستحقا بذلك ، وهو بعد ، خير من أرذل الناس لتحرجهم من الطلبات الى الشر

ولو قد قدر لبني امية ان يمتد الاجل بعمر بن عبد العزيز ، لتبدل الحال غير الحال ، ولتغير وجه التاريخ ، ولسار المسلمون قدما بأوسع الخطى لتبوءوا على العالمين ، لكن الخليفة الراشد ، الذي يعد بحق افضل واعدل خلفاء بني أمية ، استأثر به رحمة الله بعد عامين ونصف عام من خلافته امضاها بقضاء بالحق ، وبحكم بالعدل وبعلي كلمة الدين ، وبنصف الضعيف من القوي ، ولا يأخذه في الحق لومة لائم

ثم نأتي من بعده خليفة على نقيضه ، فيعيد الى كل صالح فعله «عمر» ويعيده الى ما كان عليه ، ولا يرعى حرمة دين ، ولا يعمل بسنة نبيه ، ويقبل على الشراب وصحبة الندماء ، ويمل الوقوف في معاشره القيان

نعم فقد عرف عن « يزيد بن عبد الملك » النقيضة فلو التبست بحق عصب قلوب المسلمين بالمراره ، وصاقت نفوسهم بالحق على ولاة الامور الناس بالمعروف وينسون انفسهم ومن ثم امسى المسلمون واصبحوا في هبوب زوبع مخرب

ويوم أن ماب برند، وبولى الخلافه من بعده أخوه «هسام بن عبد الملك» احسب القلوب أن الخليفه الجديد لابد صانع شيئا يبدد به ظلام من سبقه ، فقد كان معروفا قبل خلافته ، بعفة قلبه ولسانه وفعاله ، ولم يشتهر عنه ابيان معصيه او أمر نهى عنه الدين الحنيف

* * *

بويع لهسام وسنه لم تتجاوز العشرين ربيعا يملك معها سلطانا على ملك عريض يمتد شرقا حتى يجاور بلاد السند ويلاحم حدود الصين ، ويمسح غربا حتى يلامس سطآن أسبانيا

شـــاب وملك وسلطان وبيت مال تتراقد ما ترد الســه على كر الأيام والأعوام ، طالما كلمه الاسلام وسوكة المسلمين مسجوده أبدا ومن ورائهـــا اسداء الرجال الذين لم تلوثهم عرض الدنيا وربحها الرائل

والحق ان هسانا لم يفتنه ما وجد عليه الخلافة من أبهة الجاه وعظمـــة السلطان ، ولم يجره مغانى الدنيا وربحها الى ذلك المرلق الوعر الذى تردى فيه كثير من قادة السنوب وأئمة الناس ، بل عمد منذ أول يوم لخلافته الى راب الصدع فى كيـــان الدولة الفتية ، فأخذ يولى عنايته شئون الاســـلام والمسلمين فى كل بقعة ينطق فيها لسان عربى وتؤدى فى سمائها بذكر الله

منذ اول يوم فى خلافته ، بدأ يولى من خلصائه على الولايات والبعور، من خيرة سيرته وعفة نفسه وبداءه عن اقتناص ما ليس له ، وكان يـــادر بتنحيه كل مسيء الى الدين والى المسلمين ، ويحاسبهم الحســـاب العسير ، ويصـــادر اموالهم وأملاكهم وما جمعوه من كسب حرام ، ولم يكن يهمل فى الحق سفاعة قريب او كبير

على ان ايام هسام فى الخلافه لم تكن كلها هدوءا ورغـــدا ، بل كان اعداء الامبراطورية الاسلامية يتربصون بها الدوائر ، ويتقضون على أطرافها

العدده كلما احسوا براحا فى صفوف المسلمين ، او أن عن الخليفه فى دمشق فارفعها الضغط على هذا الدس الخديد

وبقدر ما عنى هشام بضبط الاحوال الداخليه فى ربوع الامصار القريبة والبعيده على السواء ، بقدر ما كان يعطا شديد العناية الى تحركات الروم فى الشمال ، ويتدارس البرلد والفرس فى الشرق ، فكان مجلسه ينعقد كل يوم فى قصر الخلافه فى دمشق ، للمشاوره مع حلفائه واعوانه ، ثم ينفرد بخبره فؤاد الحصون وأشداقهم لرد عدوان الروم والبرلد فى ارمينيه وقونية وبعور الدوله المشرقيه على سواطىء البحار ولقد ألفى من هؤلاء القواد أحسن البلاء ، مسلمة بن عبد الملك أخو الخليفة ، ومروان بن محمد ، وعبد الله ابن عمه ، فكسروا عدوان الروم والترلد ، وافحموا عليهم الحصون والقلاع ، ولفوهم فى عقر الحرب دروسا سجلها التاريخ بالفخار للعرب فى صفحاته الخالده على الأيام

كانت السوابق والصوائف دائبه الحركه والتجوال فى ايام هشام تجوس اطراف الامبراطورية شرقا وغربا وشمالا فى أحشاء عدوه وادنى بقاعه ووعره فى الرجال والعتاد وادواة الحرب ودلت الفلاع والحصون بما كفل ردع المعتدى وتأديبهم ، حتى دانت اعلى الدول المتناحمة لكلمة الاسلام والمسلمين ، فلبست مثل القوه الوقوره المسانده سلاح سنان به هيبه الدول والحكام والملوك

كما كانت الاساطيل البحرية التى تملكها المسلمون فى تلك الآونة معده بكل فتاك شديد من السلاح والعتاد وامهر رجال البحر واساطين الغزو عن طريقه ، مما كان يبعث الرعب والهيبه فى بحر الروم والبحر الأبيض وفى غيرهما بفضل امبراطور العربى المظفر أحمد «عبد الرحمن بن معاوية» الذى دانت له الغيور وأعلنت طاعتها للدوله الاسلامية الصاعده

على ان كلمة المسلمين لم تشد فى تلك الآونه العدده اعتباطا او تفعل مغفره من القدر ، بل جاءت هذه السياده لأن خليفته المسلمين كان يحس

اختيار الرجل الصالح للمنصب المناسب ، وكان يدقق فيمن يعهد اليه بخلائل الأعمال ، بعد ان يثق بكفاءته وكفايته وحسبة الله فيما سر أو علن

نعم ، كان « هشام بن عبد الملك » ينصح في المقام الاول من عامله واهتمامه ، بصالح الاسلام وصوالح المسلمين ، وسمو ذلك الملك العربض الذي اصبح دار يوم فوجد نفسه أمينا عليه وموكلا بصونه من كل عبث ، او بزول مسلما زال من قبل ملك ومملوء ، وبادب دول وحضارات سبقت بعني الولاه والحكام وابرلافهم الى سهوات النفس وأهواء القلوب

لم يكن « هشام » يولي هذا العامل ذلك الامارة لأنه نسب اليه أو قرابة أو مصاهرة ، ولم يكن يعزل ذلك الوالي لأن الوشاه وقالة السوء سعوا اليه بسموم السم في سريه نهارا وزورا ، بل كان يتحقق بنفسه من صدق كل سائغة او كذبها وما ينبغي له يريد الولايات والامصار ، حتى اذا ما يتحقق من صدق الاتهام وحدته ، بادر الى عزل والبه ومحاكمته بالحق دون ما رفق او هواده ، حتى انه عزل أخاه « مسلمة بن عبد الملك » عن ولاية ارمينية لما بدا له براحته في محاربة الترك ودفعهم عن بلاد المسلمين

حقا كانت خلافة هشام بن عبد الملك التي دامت قرابة عشرين عاما ، قائمة على دعامات رصينة من فضائل الاسلام ، مرتكزة على اصالة الخلق العربي ، رغم ما اكتنف حكم بني امية من العصبيات العنصرية والملل الى الانتماء ممن كان يخالفهم في الراي او يعارضهم في اساليب الحكم

ولكن مهما قيل عن بني امية بخير او سوء ، فقد كانت خلافة اصلة في مضمونها ، عربية خالصة في اهدافها ، وكاد ان يكون مذهبها السياسي الواضح العرب للعرب وبالعرب

آن لهشام أن يهدأ اعصابه اللاهبة بعد سنوات عصيبة طل خلالها يسوس امور الخلافة في الداخل وفي الخارج بما يصون للاسلام هيبته وعلو قدره ، ويرعى معاش المسلمين ومصالحهم في الامصار القريبة والبعيدة

على السواء ، حتى ينعم المسلمون في أقطار الأرض لو بطول أيام خلافته الرشيده ليبعموا خلالها بالأمان والرغد والعيش الرخي

وفي قصر الخلافة في دمشق ، كان هشام يقضي نهاره يستطلع أخبار الولايات والولاة ، وينظر في شكاوى الناس وما يرد اليه من بريد العبور ، وما يطلب اعفاءه من نسب مال المسلمين

حتى كان ذلك اليوم من العام العشرين بعد المائة للهجره

احب الخليفة أن يتخفف من أعباء الحكم اياما يقضيها في الخلاء بعيدا عن مقر الحكم وشواغله الثقيلة وهمومها عن النفس ، فامر حاشيته وخدمه وغلمانه بحمل ما يلزم من المتاع والحوائج وشدود الصيد والاقامة والطعام وما يلائم رحله الفراع

وهناك في أطراف دمشق حيث السفوح الخضرة وحمائل الورد والأشجار المثمره بالأزاهير من كل لون وشكل ، حطت قافلة الخليفة في فضاء طليق تجري فيه غدير ماء عذب كأنه القصه الدائمة

انتحى هشام مكانا رسما تفرع الخدم من اعداد الفساطيط ونسق حوائجها ، فراى بقعة الأرض مكسوه بعشب اخضر كأنه بساط من المخمل، ثم أرسل ناظريه يستجلي قسمات الطبيعة الرائعة ، فأبصر زرقة السماء تمتد في الافق الى غير نهاية ، وثمة سحب بيضاء تتجمع الى جانب بعضها البعض حينا أو تتباعد متهلة حينا آخر ، كأنها تعانق عنان الأصداء او تتبادل قبلات المحبين

وتبسم هشام ، وسهم ملامح رحبه للمنظر الفاتن ، ريثما محدقا في صفحة السماء ، ثم تعب ذهنه في تصور تلك القوة الخارقة التي أقامت هذه القبه الزرقاء فوق الأرض بلا عمد

ثم هب من حوله نسمات رطبة مداها بأرج الريحان والياسمين ، فتناول الزهر العطره أستكرب حواس الخليفة وتعب في أوصاله دعدعه عذبة سرت

كالسحر فى كيـــانه ، فتهيأ له أنه فى روضـــه من حباب الخلد وأن صوتا من الآخره ينادنه

ذكر ساعتها ربه وخالقه رب السماء والأرض وما بينهما ، فانتبه الى نفسه وعاد اليها ، ثم لمح عند الماء القريب قطا اليه وجلس على حافته وأخذ شوطا بعيدا عن خدمه ، وقام يصلى الى ربه صلاة السكر على نعمائه ، فهو المحمود على سرائه وضرائه

وقضى هسام أياما حلوه واوقاتا هنية مع سماره وخلصائه وأهل بيته ، وكانت مجالسه الرائقه تنعقد فى الليل لتجمع فيها العلماء والسعراء والفقهاء وكل من تطوى بين جنبيه فضلا من علم وطلاوة من حديث

وامتـــد السماط ذات ليلة بمقره خارج حيام الخليفة ، وأخذ الخـــدم والغلمان يروحون ويجيئون لتهيئة المكان بعد ان طاب لهسام أن يدعو عاشيته ومحبيه لمشاركته طعام العشاء فى تلك الليلة الرائعه ، ثم يسمرون ما طاب لهم السمر حتى وقت السحر

واحب الخليفة أن يحرك شهيه القوم الى صنوف الحديث مثلما يحرك للطعام والفـــاكهة والوان الحلوى التى تحدث صنعها أهل دمشق فلم يلبث أن قال لصيوفه

ـــ يجب أن نسمع حديثا نافعا عن دار الفناء ودار البقاء ومن يجود فى ذلك فله الف دينار نقدها معجله فى مجلسنا هذا

سكت القوم ، واخذ كل واحد يفكر فيما بين يديه ويعمل فكره وذهنه فى أجمل ما يقال فى هذا المقام على ملأ من الجمع الفاضل ، وتقدم الشعراء واحدا أثر الآخر يلقى بين يدى الخليفة أجمل ما حضره حتى انتهوا من القاء قصائدهم ، دون أن يحظى قصيده واحده باهتمام امير المؤمنين

واخذ هسام يفكر فى وجوه صـــيوفه ، فلمح من بينهم « خالد بن صفوان بن الاهتم » يخرج رأسه من ناحية السماط ، فظن انه كأنما يستطعمه

ثم أشار اليه ليقترب منه ، فغادر « خالد » مكانه بينما جميع من فى المجلس تتطلع اليه وتتوجس أن تتحدث الى الخليفة مما يعكر صفوه

وبدأ « خالد » حديثه بقوله

ـ أنعم الله عليك يا أمير المؤمنين بعمه ، وحمل ما قلدك من هـذا الأمر رشدا ، وعافية ما تؤول اليه حمدا ، وأخلصه لك بالتقى ، وكثره لك بالنماء ، ولا كدر عليك منه ما صفـا ، ولا خالط سروره بالردى ، فلقـد أصبحت للمؤمنين ثقة ومستراحا ، اليك يقصدون فى مظالمهم ، ويفزعون فى أمورهم ، وما أحد بينا يا أمير المؤمنين هو أبلغ فى قضاء حقك وتوفير محلسك ، ومامن الله جل وعز على به من محـالسك ، من أن أذكرك نعم الله عليك ، وأنبهك لشكرها ، وما أحد فى ذلك بـينا هو أبلغ من حـديث من سلف فقلك من الملوك ، فان أذن أمير المؤمنين أحدثه به

وسكت خالد لخطـه رسما نادن الخليفه بتتمة الحـديث بينما سكت الجميع دفعة كأن على رؤوسهم الطير ، ثم اعتدل الخليفة فى جلسته بعد أن تهيأ حواسه لسماع «خالد» الذى عرف بسخاءه رأيه ورهده فى زخرف الدنيا وزينتها وقال هشام

ـ هات يا ابن الاهتم ولا تدق منا فلـا فيما تقول عظه لنا وعبرة لمن سلفنا بعدنا

استأنف « ابن الاهتم » حديثه بقول

ـ قلت يا أمير المؤمنين ان ملكا من الملوك قبلك خرج فى عام مثل عامك هـذا الحوترى والسدير فى عام قد احـدثت فيـه الأرض زينهـا على اختلاف ألوان نعيمها فى زينـ موشى ، فهو فى أحسن منظر واحمل منتشر بصعيد كأن ثراه قطع الكافور وقد كان أعطى فتـاء السن مع الـكبرة والعلة والتهر ، فنظر وبعد النظر ثم قال لجلسائه لمن مثل هذا ؟ هل رأيتم

مل ما انا فيه ؟ وهل أعطى احد مل ما أعطيت ؟ فتقدم اليه رجل حكيم من بقايا حملة الحكمة والمصي على ادب الحق ومنهاجه وقال للملك أيها الملك، انك سألت عن أمر اقادن في الجواب عنه ؟ قال الملك للحكيم نعم ، هات جوابك قال الرجل الحكيم أرأيت هـذا الذي انت فيه ؟ أمسيء لم يزل فيه ، أم مسيء صار اليك مؤخرا وهو زائل عنك وصائر الى غيرك كما صار اليك ؟ قال الملك انما هو متاع زائل عني وصائر الى غيري قال الرجل فلا أرالك الا تحسب شيئا يسيرا تكون فيه قليلا وتغيب عنه طويلا ، وتكون غدا تحسبه مرتهنا قال الملك ويحك ! فأين المهرب وأين المطلب ؟ قال الرجل الحكيم اما أن تصبر في ملكك فتعمل فيه بطاعة الله ربك على ماساءك وسرك ، واما أن تخلع ناحك ، وتلبس أمساحك ، وتعبد ربك حتى تاتيك اجلك قال الملك اذا كان السحر فاقرع على بابي فاني مختـــار أحد الأمرين ، فان اخترت ما انا فيه كنت انت وزيرا لا تعصى ، وان اخترت فلوات الأرض وقفر البلاد كنت رفيقا لا تخالف ثم ان الحكيم قرع على الملك بابه عند السحر فاذا هو قد خلع ناحه ولبس امساحه وتهيأ للسياحة فلزم الانسان الجبل حتى اتاهما الأجل

ولما ان قرع ابن الاهتم من قس حكاية الملك ، نظر الى الحليفة كمـا نظر اليه جميع من في المجلس ، فاذا به يبكي حتى اخضل لحيتـه وابتل عمامته ، وأخذ يمسح دموعه في كمـه ولم يكف ابن الأهتم بما رآه من هيام ، بل اندفع ينشد شعرا لعدي بن زيد

ايهـا الســائم المعنى بالدهـ	ـر انت المـــرء المغـــرور
ام لديك العهـد الوثيق من الأيا	م بل أنت جاهل مغـــــرور
ابن كسرى كسرى الملوك أنو شر	وان أم أين قبلـه ســـابور
وبنو الاصفر الـكرام ملوك الر	وم لم يبق منهم مذكـور
ثم بعـد رب المـدائن فـاد الم	لك عنـــه فـــزاله مهجور
وبذكـر رب الخـورنق اذ أشر	ف يوما وللهـــدى تفكير

سره مالـه وكثـــرة ما نمـــ لك والبحـر معـرضا والسـدر
فارعوى فلـــه فمـال وما عـ طـــه حى الى المعـــاب نصـير
ثم بعـد الفـلاح والملك والأمـ ـة وارتهـم هـــاك الفـور
ثم صـــاروا كانهم ورق جف فالوب به الصبـــا والدبور

الحم الدهول المجلس ، واساب من المآقى دموع ساخنة ، واحس الحضور انهم لاستمعون الى صوت ساعر ، ولكن الى صوت من الآخره حرى به لسان « ابن الاهتم » بذكرهم بالمصير المحتوم

ثم سئل ابن الاهتم من المجلس وانحنى بعيدا ، فأقبلت عليـه الموالى ورجال الحاشية وقالوا يخاطبونه ما اردت الى امير المؤمنين ! اقسـمت والله عليه لقد بعثت مادعته قال ابن الاهتم

ـ اليكم عنى فانى عاهدت الله الا احلو بملك الا ذكرته الله عز وجل

وفى الصباح ، بعـد ان صحا الخليفة من نومه ، أمر خـدمه وعلمائه بسرع فساطيطه ، وحرم أمتعته ، والعودة الى دمشق حيث لزم قصره ولم يبرحه حتى وافاه أجله فى اليوم السـادس من شهر ربيع الأول لعـام ١٢٥ للهجرة

بيت من الشعر

هدأت أنفاس بني العباس بعد طول لهاث ، وبدأت الدنيا تطل عليهم بوجه صاحك ، لما ان داع في أرجاء البلاد نبأ مقتل « مروان بن محمد » الخليفة الأموي الثالث عشر والأخير على أرض مصر ، فانتهت بمقتله خلافة بني أمية ، وانقضت أيامها التي قاربت مائة عام بما حملت له من خير وشر

وبويع بالخلافة لأبي العباس عبد الله أول الأمراء العباسيين في شهر ذي الحجة من العام الثاني والثلاثين بعد المائة للهجرة ، لبدأ بخلافته حكم بني العباس الذي دام قرابة ستة قرون من الزمان

لكن خلافة « ابي العباس » لم تطل لأكثر من اربع سنين قضاها « السفاح » في مسقط اهكت جسده بالأمراض والعلل ، واسرفت جهده وطاقاته في مطاردة فلول الأمويين ، ومعالجة أعداء الدولة الجديدة من كل شيعة وحزب

ولما أن تولى الخلافة من بعده أخوه ابو جعفر المنصور ، كان الطريق قد بعد اكثره ، وكانت سيول الدماء قد جفت وتوقفت ، وكان كثير من الأشواك قد قرع من طريق السير

ويوم ان بويع لأبي جعفر ، تنفس المسلمون الصعداء ، وراحوا ان يعيشوا في ظل خلافته حياة سودها الأمان والسكينة ، حتى تحقق الدماء التي أسالتها العداوة والبغضاء بين الناس ، وهم بعد يجمعهم دين واحد خير دين أنزل للناس

وتحقق ما رجاه المسلمون فى المنصور ، وانتصب امام خلافته لية على المسلمين ، وراوه تجاوز عن كثير من سيئات خصماء البيت العباسى لتكسبهم الى جانبه ولتصد من تجاربهم وقدراتهم ، ورأوه كذلك يلتف الى الداخل ويتحسس مواضع الصدع فى كيان الامبراطورية الاسلامية فيرأبها ويقوم منها كل معوج

لقد ظل « المنصور » طوال خلافته التى دامت اثنتين وعشرين سنة ، يرسى قواعد حكم رشيد يولى زمام المسلمين بعد عروب دولة دب فيها العفن ويرى فيها سوس الخراب والانهيار

وشيد « بغداد » لتكون حاضرة الخلافة العباسية بدلا عن دمشق ، ولما ان فرغ من بنائها فى عام ١٤٨ للهجرة ، حشد اليها العلماء من كل بلد واقليم ، فأمها الناس أفواجا ، ولم يزل تتعاظم ويزداد عمرانها حتى صارت أم الدنيا وسيدة البلاد ومهد الحضارة الاسلامية فى زمن الدولة العباسية

نعم كانت خلافة « ابى جعفر المنصور » خلافة باسسين وارساء ، ولم تتجاوز كثير من المؤرخين الحقيقة حين سموا اليه انه المؤسس الحقيقى لدولة بنى العباس

* * *

ولما ان تولى « محمد المهدى » ولد المنصور خلافة المسلمين بعد موته فى شهر ذى الحجة من عام ١٥٨ للهجرة ، كان ملك الدولة العباسية قد قويت اركانه واشتد عوده ، فاستقرت امور الدولة ، وهدأت الثائرات من حولها ، واخذ المهدى يطلع الى ذلك الملك العريض من حوله ، فاذا به يمتد شرقا حتى تتاخم حدود الصين ، ويتسع غربا حتى يلامس شطآن اسبانيا

افتتح المهدى خلافته بالرفق بالناس بعد ان رأف صرورات الشدة التى كان يلجأ اليها المنصور ، فامر باطلاق من كان فى السجن على عهد ابيه ، الا من كان معروفا بالسعى فى الأرض فسادا .

وكان يجلس للمظالم ليسمع الى الشاكي والى المشكو في حقه ، ولما يلعه يدخل عماله ووصولهم الرشا ليقدم هذا الشر ويعاد ذلك الشر من الساكن ، ليحد شيا له شباك من حديد على الطريق يطرح فيه شكايات الناس مكتوبة ، وكان الخليفة يدخل ذلك البيت وحده فيأخذ ما وقع بيده اولا فأولا ويطالع فيه دون ان يهدم بعضها على بعض

ولقد كان الرخاء ويسر العيش مباحا للفقير وللثري ، ولم يكن أحد يطمع فيما بيد أحد آخر ، ولم تكن هناك من يقطع الطريق على رزق انسان او عمله او ما تتيحه له الحياة في بغداد

كانت عيون المهدي وآذانه تتعقب المتجسسين في الارض فيمسك بهم ويحاسبهم بالقسط ، ويسمع ظلمهم ، ويرد الحق لصاحبه دون اعتبار لوشيجة قرابة أو صلة مصاهرة

ولم تكن بغداد في ايام المهدي تشكو من ضوائق الحياة وأزمات العيش ، ولم تكن هناك سواق سوداء للغذاء والمأوى والكساء ، انما كانت ضرورات الانسان مكفولة وحاجاته موفورة وهي بعد ، تجري وفقا لخطط مرسومة وباحكام محتومة .

كانت اسواق التجارة واصناع منسوجه في ارجاء المدينة الكبيرة تقصدها الناس بالليل وبالنهار ليبتاعوا حاجاتهم ولوازم حياتهم من خيرات الله وما تنتجه الأرض الطيبة ، وما ترد الى عاصمة العباسيين من غنائم الشرق والغرب

وكانت الخانات والحمامات قائمة في كل حي وشارع ، ليقصدها الغرباء للاقامة فيها رسميا تقضون حاجتهم في عاصمة الخلافة ، ثم يعودون من حيث جاءوا ، وقد شهدوا ما وصلت اليه حضارة الاسلام في دار السلام

اما حلقات العلم والدرس والتثقيف ، فقد كانت تنتشر المقام الرفيع في زمن الخليفة المهدي ، فالمساجد والمدارس ودور العلم عامرة دوما برواد

المعرفة وبراعى التثقيف والاستزاده من علوم الاسلام الذى ملأ وهجه ونوره فأضاء ظلمات البصائر والعقول

والحق ان بغداد فى زمن المهدى ، كانت تبدو فى النهار كخلية النحل الدءوب ، واذا ما أقبل الليل بدت كالعروس المحلوة فى ليلة الزفاف .

ولقد كان الخليفة المهدى أديبا يطربه مسموعا بصوت الحديث والفقه والشعر ، وكان قد تلقى العلم فى زمن ابيه المنصور على صفوة المؤدبين وأئمة الفقهاء وحيرة العلماء ، فأحاط باخبار العرب واعلامهم فى الجاهلية وفى الاسلام ، واغترف من علوم الفقه والحديث والتواريخ والسير حتى بات اهلا لأن يخوض فى أحاديث العلماء وجدل الفقهاء ، ولم يكن مجلسه يخلو يوما من صفوتهم منذ كان ولبا للعهد حتى تولى خلافة المسلمين

كان مجلسه ينعقد كل ليلة فى قصره بالرصافة بعد ان يكون قد فرغ من مشاغل يومه وأهل بيته ، فما أن يصلى العشاء الآخرة ، حتى يدخل الى قاعة المجلس ، ثم يطلب الى حاجبــه أن يدخل العلماء والمحدثين والشعراء والمغنين ، ويمضى اغلب ساعات الليل فى سمر شائق وحديث رائق عن شئون الدنيا والآخرة

لكن الخليفة « المهدى » لم ينم فى تلك الليلة من العام الخامس والخمسين بعد المائة للهجرة

انفض المجلس فى تلك الليلة ، وانصرف جلساؤه وسماره ، ووقف خادمه « أرجوان » يرقب قيام الخليفة ليصحبه كعادته الى جناحه فى داخــل القصر ، لكن المهدى ظل متكئا على سياج الشرفة المطلة على نهر دجلة الذى بدا لعينيه كأنه صفحة من الفضة ، فقد كان القمر بدرا فى هذه الليلة

أخذ المهدى يسترجع ما دار فى مجلسه من جدل وما قيل من قصائد وأشعار ، وذكر ما دار بينه وبين « اسحق بن ربيع » المحدث ، وما اختلفا

علة حول اعظم بيت قالته العرب في الفخر قال المهدي ان ذلك البيت من الشعر قد فاخر به الخنساء في رثاء أخيها صخر

وان صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

وعارض « ابن بريع » الخليفة في ذلك البيت واحد سوق بيتا وراء بيت في مجال الفخر ، لكن واحدا من هذه الابيات لم يعدل ، في رأي المهدي بيت الخنساء

لقد انفض المجلس دون أن يرضى واحد منهما برأي صاحبه ، فطلب المهدي الى ابن بريع ان يحتكما الى احد قضاة بغداد ، ورضي ابن بريع بمن يراه امير المؤمنين في هذا الشأن

وذكر المهدي أيضا انه سمع في هذه الليلة بيتين من الشعر للخنساء ابن مطير من محضرمي الدولتين في بعض الحالات بالاسنان

وقد يعذر الدنيا فيضحى فقيرها عنيا ويعنى بعد بؤس فقيرها
فلا تقربن الأمر الحرام فانه حلاوته تفنى ويبقى مريرها

لقد احب المهدي حقا في تلك الليلة ان يقف على مدى رغبته في بيت الخنساء ، واحب لو يذكر البيت الثالث من شعر ابن مطير ، فقد كان يعلم من قبل انها ثلاثة ابيات تكمل بعضها بعضا فيستقيم بها المعنى الكبير الذي قصد اليه الشاعر العملاق

عاد عن المهدي ذلك البيت الثالث فحافاه النوم في تلك الليلة ، وتسلل ذهنه ، ووود لو بعث بمن يأتيه باحد ائمة الرواية في بغداد ساعتئذ لولا ان الليل ارشك ان ينقضي ، وفي النهاية قام من جلسته ودخل الى حاشيته ، وقد عزم ان يرجىء الأمر حتى الصباح

* * *

في سوق الربابين باطراف بغداد ، كان هناك رجل آخر هرب منه النوم وجافاه في تلك الليلة

كان واحدا ممن أدركتهم حرفة الأدب، فعمل راوية للاحاديث والأخبار العرب وسعرائهم ، ولم يكن مجلس علم في بغداد يذكر عليه علمه وأدبه وصفاء حافظته ، ولم يكن هو يدوره يسعى غير مجالس العلماء ومحافل الفقهاء ، حتى الخليفه نفسه كان يعرف قدره ويدعوه الى مجلسه ليفيد من علمه وحديثه ويستمع منه الى شعر القدماء والمحدثين

نعم كانت حرفة « المفضل الضبي » صعبة الرزق شحيحه العطاء ، والعلماء من قبل ومن بعد ، يعطون الكثير ولا يجحدون سوى الرزق اليسير

في تلك الليلة بات المفضل مؤرق الجفن ساهر الطرف يقلب امور حياته على كل الوجوه ليخلص الى مخرج يريحه من هذه الحياة البائسه ، بعد ان اتعبه العديد من السنين والسنات ، والرزق ضنين على امثاله من العلماء ، لكنه في سخاء البحر على الأغنياء والجهلاء !

كان قد غرق حتى اذنيه في بحر من اليأس ، فهو في هم بالليل وفي مذلة بالنهار

وانقضت تلك الليلة بطيئة ثقيلة على المفضل ، حتى اذا ما لاح ضياء الفجر ، قام فاغتسل وتوضأ ثم صلى واحد يتمهل الى خالقه ان يفرج كربته وان يرفع عنه غمته

ولما ان فرش الشمس نورها ودفاها على الكون والكائنات ،غادر المفضل داره واتخذ مكانا ظليلا امامه ، وأسند رأسه الى الجدار ثم راح العنان لافكاره يروح بها ويغدو بخيال كيفما شاءت

وداهمه نعاس اراحه الى حين من همومه الثقيله التي صاحبته طيلة الليل ، ثم افاق على اصوات من حوله ، ولما ان فتح عينيه ، ابصر جنود الخليفة يتحلقون به من كل جانب

سأل المفضل رئيس الحرس وهو بين النوم واليقظة ما الخبر ياسيدي ؟ قال رئيس الحرس هيا الى قصر امير المؤمنين انه يطلبك الساعة

اسقط فى يد المفضل واضطرب حواسه ، وانقى ان هذه الدعوة الى لقاء الخليفة فى هذه الساعة المبكرة من النهار ليس من ورائها خير ، وانما سر مستطير

وطلب الى رئيس الحرس ان يأذن له بلقاء اهل بيته وعياله قبل ان يذهب معه ، فقال رئيس الحرس عجل اذن ولا تستهدف لغضب أمير المؤمنين

ودخل المفضل الى داره فاغتسل وتطهر ولبس ثيابا بيضاء وصلى ركعتين ، ثم سلم على أهل بيته وهو لا يعلم مصيره فى ذلك اليوم

* * *

فى الطريق الى قصر الخليفة فى الرصافة اخذ المفضل يحدث نفسه ان الخليفة انما طلبه فى ذلك اليوم لسعاية واش أو استخفاف لواحد من نقلة السوء ذكر ساعتئذ تلك الأيام التى صحب خلالها « ابراهيم العلوى » وقت ان خرج على « أبى جعفر المنصور » فى عام ١٤٥ للهجرة ان المهدى لابد قاتله فى ذلك اليوم الاسود

قال المفضل لنفسه مرحى اليوم بالموت لقد تعبت فى مسالك الحياة ، خاف على نسل العباس مرحى بها خاتمة وعلى الله رعاية فلذات الكبد من بعدى انه خالقهم فى هذه الدنيا فهو بهم مسئول ، وانه من قبل ومن بعد اكرم مقصود ومأمول

ثم افاق فى النهاية من هواجسه لما أن راى نفسه امام المهدى فى صدر مجلسه بنظر اليه بوجه مسرور تسع البسمة العريضة على صفحته الوضيئة

قال المهدى مرحبا بالمفضل امام الرواة فى بغداد

احس « المفضل » ساعتئذ ان ثقلا من الهم ينداح عن صدره ، فاستبد دفاء قلبه الواجف ، وهدأت أنفاسه الراجفة ، وتقدم الى حيث يجلس الخليفة ، فتناول رداءه واخذ يقبله ويدعو له بالاسعاد وهداه الحياة العمر الطويل

ولمح المفضل « ابن ربيع » فى ناحيه من المجلس ، ولم يكن قد رآه ساعة دخوله ، فأيقن ان الخليفة قد دعاه فى هذه الساعة فى شأن من شئون الحديث

واوما ابن ربيع الى المفضل ان يهدأ خاطره ويسكن حأسه المضطرب، واخذ يتسم فى وجهه ، فتلاشت من نفسه نوازع الجزع وخفقات النوحس

قال المهدى حدثنى يامفضل أفادنا الله بعلمك ما أفخر ما قالته العرب حتى يومنا هذا ؟

سكت المفضل لحظة ثم قال اعز الله امر المؤمنين وخوله بالعقل الراجح والرأى الناجح ما اظن الا انه بنت الحسناء فى رثاء اخيها صخر وان صخرا لأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

قهقه المهدى ضاحكا وأخذ يلفت حواليه حتى وقعت عيناه على ابن ربيع فقال قد فلت ذلك لابن ربيع فأباه قال المفضل الصواب ما قاله امر المؤمنين ، وقد انشد اعلم الرواه على بنت الحسناء

واوما المهدى الى المفضل ليقترب منه ، ثم ادنى له بالجلوس فى مواجهته وقال فلتحدثنى يا مفضل فى هذه الساعه قال المفضل أى الحديث اعجب الى امير المؤمنين ؟ قال المهدى لتكن الحديث عن النساء

اخذ المفضل يحدث المهدى عن أحوال النساء وطبائعهن وصنوف أمزجتهن وما يحملنه من أوصاف الجمال والقبح حديثا عجيبا لم يسمع به الخليفة من قبل حتى انتصف النهار ، وفى النهاية سأله وهو يهس فى وجهه يا مفضل ، اسهرنى البارحة سمار لابن مطير ، وكنت اعلم ان لهما نسبا عاليا ولكنه لم يحضرنى

سأل المفضل لو شاء امير المؤمنين ذكر النسبين مسكورا قال المهدى

وقد يعذر الدنيا فيضحى فقيرها عيشا ويعمى بعد نؤس فقيرها
فلا تقربن الامر الحرام فانه حلاوته تفنى ويبقى مريرها

ساعت بسمة راضية في وجه المفضل ، فرفع ناظريه الى وجه المهدي الذي بدا لعينه كأنما هو طالب علم يخطو على أول الطريق ، وعى ساعتها أنه في قصر الخلافة ، وأنه قاعد بين يدي من يملك الرقاب في ذلك الملك الواسع العريض أحس المفضل ساعتئذ أنه حقا ذلك العالم الواثق من علمه وعمق ثقافته ، وان المهدي ومحدثه ابن ربيع ، انما هما طالبا علم سعيان الى التزود مما خلفه الأقدمون وما ابتدعه المحدثون

قال المفضل يخاطب المهدي اعز الله امير المؤمنين وجعله ملاذا للمسلمين ان لهذين البيتين احاديث كثيرة يكمل بها المعنى فتتألق فيه المعاني ذلك البيت الذي للحسين بن مطير هو

وكم قد رأينا من يسير عسيره ... واحرى بصبر بعد اكتدار جديرها

والحق ان « المهدي » كان رقيق القلب رهيف الحس ، وساعة ان سمع ذلك البيت ، ارتجف قلبه واهترت عيقاته واجتذب دموع ساجية بسخاء من عينيه لما ذكر خلافة بني امية التي درست اعلامها وبعثرت الحال رحالها ، ثم اقبال الدنيا على بني العباس حتى صارت الخلافة اليهم فقال يسأل محدثه يا مفضل ، كيف حالك ؟ قال المفضل كيف تكون حال من هو مأخوذ بعشرة آلاف درهم لا يدري كيف يؤديها الى اصحابها ؟

ضحك المهدي لحظة ثم اشرق وجهه ببسمة عريضة ، والتفت الى ابن ربيع ثم قال اما وقد رضي ابن ربيع بحكمنا في افخر بيت للعرب ، فقد رأينا ان يؤدي للمفضل عشرة آلاف درهم واما عن البيت الثاني لابن مطير ، فان أمير المؤمنين يرى ان يأخذ فيه بثلاثين الف درهم وان تكون واحدة من جلسائنا في كل ليلة

وغادر « المفضل الضبي » قصر الرصافة في ذلك اليوم يحمل عطاء الخليفة ، واضحى غنيا بعد بؤس ، وسعيدا بعد بؤس

فهرس

مقدمة بقلم الدكتور احمد الحوفى	٣
شعاع من الشمس	٩
لقـــاء ذات ليـــلة	٢٧
رحلة طويلة الخطوات	٣٥
شمس الحـــوار	٥٧
فنان من مكة	٦٧
زاهد وخليفة	٨١
رحلة من البـــادية	٩٧
طائر من بغداد	١١٣
صوت من الآخرة	١٢٧
شمس الشعر	١٣٧

مؤسسة
دار التحرير للطبع والنشر
(مصانع شركة الاعلانات الشرقية)